المشروع القومي للترجمة

شتات أهل الأندلس

{المهاجرون الأندلسيون}

تأليف: مرثيديس غارثيا أرينال

ترجمة: محمد فكرى عبد السميع

مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن

1085

لكى نفهم وضع الكتاب الذى نقدم له ينبغى أن نضع فى الاعتبار أنه يشكل جزءًا من سلسلة تضم ثلاثة كتب: الكتابان الآخران هما "العلوم والتبادل الثقافى فى الأندلس" لماريبيل فييرو، "الأندلس والأندلسيون" لمانويلا مارين.

يقدم هذا الكتاب رؤية أخرى للأندلس؛ إذ ترى المؤلفة أن الحديث عن تقدم الأندلس وتعايش أبنائه فى سلامٍ لا يعدو كونه "أسطورة" من وحى خيال المؤلفين. ليس صحيحاً - من وجهة نظر المؤلفة - أن المسيحيين واليهود كانوا راضين بالعيش تحت الحكم الإسلامى "المتسامح"، بل ترى أن أبناء الديانتين تعرضوا لتمييز، إن لم يكن اضطهاداً. وتهدف ترجمته إلى تعرف القارئ العربى على وجهة نظر أخرى فى موضوع نراه من المسلمات بينما يدور الجدل بشأنه فى إسبانيا.

الكتاب - رغم صغر حجمه - يقدم معلومات أساسية لمن يريد البدء فى دراسة تاريخ الإسلام فى الأندلس بعد سقوط غرناطة، أما الذى يريد التعمق فى الدراسة فنحيله إلى كتب أخرى للمؤلفة ولغيرها من الباحثين صدرت ترجماتها عن المشروع القومى للترجمة.

تصميم الغلاف: هند سمير

شتات أهل الأندلس

(المهاجرون الأندلسيون)

المشروع القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ١٠٨٥
- شـتات أهل الأندلس (المهاجرون الأندلسيون)
- مرثيديس غارثيا أرينـال
- محمـــود فكـرى
- جمال عبد الرحمن
- الطبعة الأولى ٢٠٠٦

هذه ترجمة كتاب:

La diáspora de los andalusíes

Por: Mercedes García-Arenal

شارع الجبلاية بالأوبرا ـ الجزيرة ـ القاهرة ت: ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤

EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo

TEL: 7352396 Fax: 7358084

المشروع القومى للترجمة

شتات أهل الأندلس

(المهاجرون الأندلسيون)

تأليف : مرثيديس غارثيا أرينال

ترجمة : محمود فكرى عبد السميع

مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن

٢٠٠٦

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

أرينال مرثيديس غارثيا

شتات أهل الأندلس أو المهاجرون الأندلسيون

تأليف : مرثيديس غارثيا أرينال ، ترجمة محمود فكرى عبد السميع ،

مراجعة وتقديم : جمال عبد الرحمن

ط ١ - القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٦

٢٣٢ ص ، ٢٠ سم (المشروع القومى للترجمة) ،

١ - الأندلس - تاريخ ٩٥٣,٠٧١

أ - فكرى ، محمود (مترجم)

رقم الإيداع ٢٤٨٢٧ / ٢٠٠٦

الترقيم الدولى : I.S.B.N - 977- 437-142-1

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تقديم المراجع

لدولة الأندلس مكانة عظيمة فى نفوس أبناء الحضارة العربية الإسلامية ، فهى ترمز إلى عصر ازدهار حضارتنا وتفوقها ، وإلى موقعنا بوصفنا أصحاب فضل على أوروبا وغيرها، أو- على الأقل- بوصفنا مساهمين بشكل أو بآخر فى تقدم الإنسانية.

البعض يتحدث عن "الفردوس المفقود" ، والبعض الآخر يتذكر ضياع الأندلس كلما سقطت قلعة عربية. يتحدث المؤرخون العرب -وكثير من الأوروبيين- عن دولة الأندلس بوصفها نموذجًا للتقدم والرقى والتعايش بين مواطنين يدينون بأديان مختلفة ، كل ذلك فى انسجام تام.

لكن الكتاب الذى بين أيدينا يقدم رؤية أخرى للأندلس ، إذ ترى المؤلفة أن الحديث عن تقدم الأندلس وتعايش أبنائه فى سلام لا يعدو كونه "أسطورة" من وحى خيال المؤلفين. ليس صحيحًا -من وجهة نظر المؤلفة- أن المسيحيين واليهود كانوا راضين بالعيش تحت الحكم الإسلامى "المتسامح" ، بل ترى أن أبناء الديانتين تعرضوا لتمييز ، إن لم يكن اضطهادًا.

لكى نفهم وضع الكتاب الذى نقدم له ينبغى أن نضع فى الاعتبار أنه يشكل جزءًا من سلسلة تضم ثلاثة كتب : الكتابان الآخران هما "العلوم والتبادل الثقافى فى الأندلس" لماريبيل فييرو، و"الأندلس والأندلسيون" لمانويلا مارين . وقد نبهت المؤلفة إلى أن هذا الكتاب لا ينبغى أن يقرأ بمعزل عن الكتابين الآخرين (هل نطمع فى أن تتسع إصدارات المجلس الأعلى للثقافة لنشر الكتابين الآخرين؟)

وإلى أن يرى المجلس رأيه فى ترجمة الكتابين نتحدث بكثير من الإيجاز عنهما . كتاب "العلوم والتبادل الثقافى فى الأندلس" يتحدث عن العلوم الأندلسية فى إطار أندلسى بحت ، أى بمعزل عن أوروبا ، ويخلص إلى أن الأندلسيين لم يطوروا علومهم بهدف تصديرها إلى أوروبا ، بل كان اهتمامهم منصبًا على أنفسهم أولا ثم على المسلمين فى الشرق ، أما كتاب "الأندلس والأندلسيون" فيتحدث عن تاريخ الفترة الأندلسية من حيث التطورات الفكرية والاقتصادية والاجتماعية . تحدد المؤلفة صفة "الأندلسى" وعلاقة أهل الأندلس بالمسلمين فى حوض البحر المتوسط ، ثم تحدد "الأساطير" التى نشأت حول الأندلس (إذن فإن الحديث عن "أساطير أندلسية" لا يقتصر على باحث واحد ، بل نرى أنه يمثل اتجاهًا ، وإن كان أنصاره قلة حتى الآن).

هناك أمر آخر ينبغى أن نضعه فى اعتبارنا عند قراءة هذا الكتاب. فى عالمنا العربى لا يرى الناس فى الأندلس إلا الصورة الوردية ، ولعل كتابًا مثل هذا الذى نقدم له يصدم تصورات الكثيرين. أما القارئ الإسبانى فهو مهيأ لقراءته ، ذلك لأنه قرأ فى كتابات بعض المؤلفين وجهة نظر أخرى تتحدث عن الأندلس كمجرد "أسطورة" أراد المؤلفون بناءها. تأمل مثلاً كتابات المستعرب الإسبانى سيمونيت فى القرن التاسع عشر[١] ، وتأمل وجهة نظر سانشيث ألبورنوث فى مناظراته مع أميريكو كاسترو ، ثم تأمل – أخيرًا– كتابًا يوحى عنوانه بأن ما هو "أندلسى" يتعارض مع ما هو "إسبانى". هذا الكتاب الأخير يقول ببساطة إنه لم يعد هناك تراث أندلسى فى إسبانيا ، ويبنى رأيه على أساس أن مسلمى غرناطة – وهم حملة التراث الأندلسى الإسلامى– قد تم تهجيرهم من الجنوب وإحلال مسيحيى الشمال محلهم، وعليه فإن عادات أهل غرناطة اليوم لا تمت للمسلمين بصلة ، وليست سوى عادات أهل الشمال.

نستطيع أن نؤكد أن هذا الطرح لا يصمد كثيرًا أمام نتائج الأبحاث التى أجراها مؤلفون إسبان. انظر مثلاً خوليو كارو باروخا الذى خصص فصلاً كاملاً للحديث عن موريسكيى مملكة غرناطة الذين عادوا إلى موطنهم الأصلى بعد طردهم منه[٢]. لكننى أريد أن

أوضح أن موضوع الأندلس ليس من المسلّمات فى أوروبا، بل هناك جدل بشأنه.

على أن الباحثين الأوروبيين الذين يقولون بوجود اضطهاد للمسيحيين واليهود فى الأندلس يبنون أحكامهم على أساس أن المجتمع الأوروبى الحديث يقبل بوجود غير المسيحيين ولا يمارس تمييزًا ضدهم. ولا يملك المرء هنا إلا أن يقول إن الواقع غير ذلك ، وكلنا يعلم معاناة المسلمين فى أوروبا عندما يريدون بناء مسجد (انظر على سبيل المثال قصة مشروع مسجد إشبيلية ، فقد تعطل البناء لأن أهل الحى "لا يريدون إرهابيين بينهم")، أما عن قصص التمييز ضد الأوروبى الذى يعتنق الإسلام - خاصة إذا كان من أصحاب المناصب العليا - فحدّث ولا حرج.

عمومًا فمن المهم أن نطالع وجهة النظر الأخرى إذا أردنا أن يكون تقييمنا لأمر ما موضوعيا.

يتناول الكتاب أيضًا العناصر السكانية فى شبه جزيرة إيبيريا إبان الحكم الإسلامى فى الأندلس ولعل من المناسب أن نبدأ بتوضيح معنى كل اسم يطلقه المتخصصون على كل عنصر سكانى. المستعرَب **mozárabe** هو المسيحى الذى يقيم فى مملكة يحكمها

المسلمون.(أما المستعرِب arabista فهو الباحث المشتغل بالحضارة العربية الإسلامية)

والمدجن mudéjar هو المسلم الذى يقيم فى مملكة يحكمها المسيحيون. أما الموريسكى فهو المسلم الذى لم يغادر إسبانيا بعد سقوط غرناطة الإسلامية وظل يمارس شعائر الإسلام سرا بعد أن أجبرته السلطات المسيحية على التنصر.

يتحدث الكتاب عن المستعربين mozárabes ودورهم فى نقل المعارف إلى الممالك المسيحية فى الشمال. يذكر أن المستعربين أقاموا فى المغرب ، حين أبعدهم المرابطون إليه بعد أن ساندوا ألفونسو الأول ملك أراغون المسيحى) .

يتحدث عن اليهود فيقول إنهم استقبلوا بارتياح وصول الفاتحين المسلمين أملاً فى تحسن أوضاعهم، وإنهم سرعان ما انخرطوا فى الثقافة العربية. تشير المؤلفة إلى الدور الذى لعبه اليهود فى نقل المعارف العربية إلى أوروبا من خلال مدرسة المترجمين فى طليطلة.

يتحدث الكتاب أيضًا عن تحويل اليهود قسريًا إلى الإسلام فى بداية عصر الموحدين ، ولا يسوق أدلة موثقة على ذلك ، ويقول إن

المصادر العربية أغفلت هذا الأمر. ونرى أن على مؤرخينا مناقشة هذا الموضوع والإسهام فى توضيحه.

يتضح من عرض وضع الأقليتين المسلمة واليهودية فى ممالك المسيحيين بالشمال أنه لم يكن هناك تسامح دينى على الإطلاق ، ويشهد الكتاب نفسه أن المسيحيين واليهود فى الممالك المسلمة كانوا يتمتعون بوضع ممتاز، وإن لم يكن مساويًا للمسلمين.

تكتسب هذه الشهادة أهمية خاصة إذا وضعنا فى الاعتبار الموقف الذى تبنته المؤلفة فى البداية، على أننا لا نستطيع أن نغفل - كذلك - هذا التقييم الموضوعى الذى نراه هنا.

يتحدث الكتاب عن المدجنين (فى قشتالة وغرناطة وأراغون وفالنسيا) وعن الموريسكيين (يتعرض لمحاولات تنصيرهم ولاضطهادهم وللسعى إلى طمس هويتهم) وتخصص المؤلفة فصلاً للحديث عن الموريسكيين بعد طردهم من إسبانيا (فى المغرب والجزائر وتونس).

تتحدث المؤلفة عن موقف كل من غالميس دى فوينتيس وماركيث بيانويبا[٣] من الموريسكيين. تقول إن بيانويبا يرى أن المؤرخين اعتمدوا على الكتابات الرسمية وهى- فى رأيه- "مصادر مسمومة" ووصلوا إلى نتيجة مفادها أن المجتمع الإسبانى كان يكره الموريسكيين، وتنقل المؤلفة عن بيانويبا قوله: لو أن المؤرخين

الإسبان اطلعوا على الأدب الألخميادو الذى كتبه الموريسكيون لعلموا أن اندماج أولئك الموريسكيين فى مجتمع الأغلبية كان ممكنًا.

تعرض المؤلفة أيضًا رأى غالميس دى فوينتيس ، وهو يرى أن الأدب الألخميادو يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن الموريسكيين كانوا مسلمين قلبًا وقالبًا، وأنه – بناء على ذلك– لم يكن اندماجهم فى مجتمع الأغلبية ممكنًا.

المؤلفة تؤيد رأى غالميس دى فوينتيس ، وترى أن المجتمع متعدد الثقافات لم يوجد فى إسبانيا مطلقًا.

ونحن بدورنا نرى أن مفهوم "التعايش" عند غالبية المؤرخين والباحثين الإسبان معناه تخلى الأقلية المسلمة عن هويتها الدينية.

منذ سنوات أجريت دراسة عن مخطوطة كتبها بالإسبانية موريسكى لجأ إلى تونس [٤] ، ورأيت أن الموريسكى – حتى وهو خارج وطنه الإسبانى– كان إسبانيًّا شديد التمسك بوطنه. لكنه كان أكثر تمسكًا بالإسلام، وقد ضحى من أجل إسلامه بالكثير. ما يهمنى أن أبرزه هنا هو أن الموريسكى حاول الاندماج فى مجتمع الأغلبية ، فغير ملابسه وارتدى ملابس المسيحيين ، ثم تخلى فى حياته العامة – طوعًا أو كرهًا – عن لغته العربية وتحدث لغة أهل قشتالة. فعل

الموريسكى كل ذلك – وغيره كثير – حتى يندمج فى مجتمع الأغلبية. لكنه لم يتخل مطلقًا عن الإسلام.

لم يخطئ ماركيث بيانوبيا – فى تصورى – فى قراءته لمضمون الأدب الألخميادو ، إذ كان يتحدث عن مجتمع إسبانى يتعايش فيه المسيحيون والمسلمون واليهود. أما الذين ربطوا بين الهوية الإسبانية والعقيدة الكاثوليكية فهم الذين تبنوا نظرية الموريسكى غير القابل للاندماج فى مجتمع الأغلبية.

وبعد ، فإن الهدف من ترجمة هذا الكتاب أن يتعرف القارئ العربى على وجهة نظر أخرى فى موضوع نراه نحن من المسلمات بينما يدور الجدل بشأنه فى إسبانيا.

الكتاب، على صغر حجمه، يقدم معلومات أساسية لمن يريد البدء فى دراسة تاريخ الإسلام فى الأندلس بعد سقوط غرناطة. أما القارئ الذى يريد التعمق فى الدراسة فإننا نحيله إلى كتب أخرى للمؤلفة ولغيرها من الباحثين وصدرت ترجماتها عن المشروع القومى للترجمة.

يبقى أن نقدم جزيل شكرنا للزميلة مرثيديس غارثيا أرينال على تعاونها – هذا هو كتابها الرابع الذى ننشره فى القاهرة – وللمجلس الأعلى للثقافة على دعمه المستمر لنشر كتب تلقى كثيرًا

من الضوء على تاريخ الأندلس فى مرحلة ازدهاره وبعد سقوط دولة الإسلام فى غرناطة.

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

جمال عبد الرحمن

الهوامش

(١) انظر كتاب "المستعربون الإسبان فى القرن التاسع عشر" تأليف مانويلا مانثاناريس، ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٣

(٢) انظر كتابه "مسلمو مملكة غرناطة بعد عام ١٤٩٢" ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٤

(٣) انظر كتابه "القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى" ترجمة عائشة سويلم ، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٥

(٤) انظر د. جمال عبد الرحمن "ثقافة موريسكى: قراءة فى المخطوطة رقم ٩٦٥٤ بالمكتبة الوطنية بمدريد" ، المؤتمر العالمى الحادى عشر للدراسات الموريسكية ، زغوان ، تونس ، ٢٠٠٣

تصدير الناشر الإسباني

تصدر موسوعة البحر المتوسط حاليًا في خمس لغات : الإنجليزية ، والعربية ، والإسبانية ، والفرنسية ، والإيطالية : وهي عبارة عن إنتاج مشترك أفرزته مؤسسة تضم عددًا من الناشرين ، ومراكز البحوث التي تنتمي إلى بلدان ساحل البحر المتوسط . ولقد كان الغرض منها إثبات ما إذا كانت منطقة البحر المتوسط - بما تشهده من تعقيدات وخلافات ، وتوترات - تمثل كيانًا يقتضي التعرض له بالتحليل والدراسة . ربما تدفعنا المعلومات المتوفرة في الوقت الراهن إلى المسارعة إلى اقتحام هذا المجال ؛ وذلك لندرة الدراسات المباشرة أو غير المباشرة التي يمكن الأخذ بها في هذا الشأن .

وإنه بموجب الخبرة المكتسبة من إصدار الكتب العشرين الأولى ، والتي تشكل الجزء الأول من هذا المشروع الشامل ، فإن الصراع المتوسطي يقتضي منا أن نعمل على إصدار المزيد من هذه السلسلة ، يومًا بعد يوم .

وترتكز مغامرة الموسوعة المتوسطية على محورين رئيسيين : محور (التاريخ) الذى يهدف إلى التعمق فى مجال التعرف على الهويات التاريخية ، والتراث الثقافى والفنى الهائل ، باعتبارها عناصر جوهرية تساعد على تكوين خلفية عن البلدان الحالية ، كما تساعد على التعرف على أسباب وجذور النزاعات الحالية ، من خلال ما يجرى من أحداث فى الوقت الراهن ، وفى زمن الاستعمار . والمحور الثانى (الزمن الحاضر) الذى يتعرض للعلوم الإنسانية والاجتماعية بما فيها من نظرة أنثربولوجية ، ونظرة تتعلق بالاقتصاد الكلى ؛ وذلك سعيًا للوصول إلى تحليل التحولات والتغيرات التى طرأت على الساحة البحر أوسطية ، وخاصة تحليل النقاط الحرجة والالتزامات الدولية .

لقد أصبح البحر المتوسط يمثل أحد مراكز العصبية فى جسد مسيرة العولمة ، ولذلك فإننا لا نستطيع أن نغفل الروابط والعلاقات المحلية والعالمية ، وينبغى أن نتصدى من جديد لقضية حوار الحضارات .

مقدمة

حقق الإسلام انتشارًا واسع النطاق منذ أن انطلق من مركزه الرئيسى فى شبه الجزيرة العربية ، حتى غطى خلال حقبة زمنية قصيرة للغاية مساحات شاسعة، إذ بلغت حدوده الشرقية بلاد الهند، وامتد غربًا إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، وهناك ترسخ وجوده بوصفه قوة سياسية إسلامية خلال الفترة من القرن الثامن الميلادى حتى القرن الخامس عشر. والوجود الإسلامى فى الغرب، إنما هو علاقة التصقت بتاريخ هذه المنطقة التى أطلق سكانها عليها اسم الأندلس . إذن فإن الأندلس كان يمثل منطقة حدودية، أى حدود الإسلام الغربية. وظل يتميز بهذا الوضع الحدودى على مر تاريخه . وبالتالى اكتسب المجتمع الأندلسى فيما بعد سمات حضارتين : الحضارة الغربية، صاحبة الموروث الثقافى الرومانى والمسيحى، والحضارة الشرقية، العربية والإسلامية، مما جعله يتميز عن مجتمعات أخرى فى العالم الإسلامى إبان العصور الوسطى، خاصة بعد أن اندمج المجتمع الأندلسى اندماجًا كليا، نتيجة لحرص الأندلسيين على انتمائهم لهذا العالم.

وسوف نعرض للأندلس فى هذا الكتاب باعتباره قوة سياسية إسلامية فى شبه الجزيرة الإيبيرية. وكانت سمات الواقع المتغير الذى أخذ ينحصر تدريجيا فى نطاق حدوده الجغرافية، التى لا يتعين أن تكون مطابقة لما هو أندلسى، نظرًا لما تضمنته هذه الحدود من مناطق مثل البرتغال وقطالونيا، إضافة إلى هوية الأندلسيين، وهى موضوع الدراسة التى تضمنها الجزء الثامن من هذه السلسلة تحت عنوان "الأندلس والأندلسيون" لمانويلا مارين. إن طبيعة الواقع المتغير، والآخذة حدوده الجغرافية فى الانحسار بصورة مطردة ، وهى حدود لا ينبغى مطابقتها مع ما هو أندلسى، ذلك لأنها تضمنت مناطق أخرى كالبرتغال وقطالونيا، وكذلك هوية الأندلسيين، تناولها الجزء الثانى من هذه السلسلة تحت عنوان " الأندلس والأندلسيون" لمانويلا مارين:

انحدر الأندلسيون أساسًا من سلالة الإسبان- الرومانيين الغربيين ، سكان شبه الجزيرة قبل غزو المسلمين لها، ثم قفزت على هؤلاء السكان الأصليين عناصر عربية قدمت فى أول الأمر ضمن صفوف الحملات العسكرية، ثم ارتبطت فيما بعد بسلطة الأمويين السياسية، وكانت هذه العناصر من البربر، سكان شمال إفريقيا الأصليين، وهؤلاء كانوا يمثلون الغالبية العددية، واتسم وجودهم بالاستمرار، نظرًا لقرب بلاد المغرب، وبفضل العلاقات الوثيقة التى

كانت تربط بين ضفتي المضيق على مر التاريخ، أضف إلـــى تلــك العناصر الثلاثة الرئيسية (الإسبانية الرومانية، والعربية، والبربريـــة) جماعات العبيد الوافدة من مختلف الأجناس، وكان القطـــاع الأكبــر منهم ممن وفدوا من شمال شبه الجزيرة ، وإن كانت أعداد أخرى قد قدمت من بلدان أوروبية أخرى. ولذلك اتسمت التركيبة السكانية فـــى الأندلس بالتعدد والتباين. كان هناك أيضًا تنوع ملموس إلى حـــد مـــا بين الجماعات الدينية . فلم يكن الأندلسيون من المسلمين فقـــط، وإن كانوا هم السواد الأعظم، وإنما عاشت معهـــم أقليـــات مـــن اليهـــود والمسيحيين، وكلاهما كان مستوعبا للثقافة العربية ومندمجًا فيها .

إن موضوع الزمن والمعدل التدريجي لتعريب وأسلمة ســـكان شبه الجزيرة الأصليين، من الموضوعات المهمـــة التـــى لـــم تأخـــذ نصيبها من الدراسة كما ينبغى (لا يتّعين بالضرورة أن يكـــون ثمـــة توافق زمنى بينهما)، وذلك اعتبارًا من غزو إسبانيا فى القرن الثامن الميلادى. كان الاستيلاء على شبه جزيرة إيبيريا عبارة عن صـــورة من الاتفاق على الاستسلام إلى حد كبير مع السكان المحليين ، وذلك على ضوء ما تناولته الوثائق ومنها" حلف تودمير الشهير"، أو تيودو ميرو Teodomiro،حاكم مدينة مرسيه Murcia. فقد نص ذلـــك علـــى الاستسلام السلمى، والذى تم بموجب اتفاقات مع عدد من أقاليم شـــبه الجزيرة على الاندماج والانضمام إلـــى الـــسلطة الجديـــدة الثقافيـــة والدينية.

وفى المراحل الأولى للمد الإسلامى نظر بعض المسيحيين إلى الإسلام وكأنه صورة جديدة من صور الهرطقة المسيحية، التى لا تقر بألوهية المسيح (من هؤلاء خوان داماثسينو Juan Damasceno، الذى انبرى للدفاع عن شرعية عبادة الصور فى عصر تحطيم الأيقونات ، ونشر كتابات عن الهرطقات المسيحية فى الشرق) ولم يفاجأ القوط الإسبان بذلك، لأنهم كانوا قد مارسوا شكلاً من أشكال الهرطقة على مدى حقبة طويلة من الزمن، وهى الأريوسية التى تنكر أيضًا ألوهية المسيح. تلك الأمور ذات الطابع الأيديولوجى ، بالإضافة إلى عوامل اقتصادية أخرى (إعفاءات من الأعباء الضرائبية، أو تيسير الانخراط فى جماعات الحكم الجديدة)؛ إضافة إلى تلاشى نخب عصر ما قبل الإسلام ، ومنها الصفوة الكنسية ، ساعدت فى مسيرة الأسلمة بخطى سريعة.

كان إيقاع مسيرة الأسلمة مختلفًا عن إيقاع عملية التعريب، فمن المعروف أن التعريب، وهو يعنى التكامل اللغوى والثقافى، لا يتزامن دائمًا مع التحول الدينى، أى التأسلم. (هذا الجزء مطروح فى الجزء الحادى عشر من هذه السلسلة، تحت عنوان: " الأندلس: معارف وتبادل ثقافى الذى كتبته ماريبيل فييرو ".

أخذت هذه المسيرة فى الانتشار طوال القرنين الأولين من تاريخ الأندلس ، وترتب عليها مناخ اتسم بالتعاون أكثر من كونه

تغييرًا مفاجئًا وجذريا ، لو قدر له أن يحدث بعد الغزو، ربما يكون قد أفرز مجتمعًا جديدًا متجانسًا، وهو ما لم يحدث.

بقيت فى المناطق الإسلامية خلايا من المسيحيين المعربين (وهؤلاء ما عرفوا بـ"المستعربين" عندما هاجروا إلى المناطق المسيحية فى الشمال) حتى أواخر القرن الحادى عشر على الأقل، كما بقيت جماعات من اليهود حتى أواخر القرن الخامس عشر ، واندمجت تلك الجماعات اندماجًا كليا بموجب ما عرف بـ"عهد الذمة"، وهو نظام يكفل لهم الحماية ، ويسمح باحتفاظهم بديانتهم والقوانين الخاصة بهم، وسلطتهم الكنسية، كما يكفل لهم استقلالاً نسبيا فى إطار حالة من الإذعان والخضوع. وهذا يعنى أن غير المسلمين كانوا خاضعين لنوع من التمييز (تحملوا أعباء ضريبية قاسية ، مما دفع كثيرين منهم إلى تغيير عقيدتهم الدينية) إلا أنهم لم يتعرضوا للاضطهاد.

نقلت السلطات المسيحية فيما بعد هذا النظام ، وانتهجت تطبيقه فى ممالك الشمال ، عندما بدأ التوسيع المسيحى فى الجنوب على حساب الأراضى الإسلامية التى تم ضمها بما فيها من سكان مسلمين ("المدجنين" واليهود).

هذه الأقليات (المستعربون والمدجنون واليهود) التى وقعت فى أيدى المسيحيين أو المسلمين نتيجة لما شهدته الحدود من تعديلات ،

أو التى اضطرت إلى الهجرة تحت ضغط الظروف الاقتصادية والسياسية، تعتبر أهم حلقات الاتصال التى انتقل عبرها التأثير الإسلامى إلى المناطق المسيحية.

إذن فإن تشريع العصور الوسطى فى شبه الجزيرة الإيبيرية، سواء كان فى المناطق الإسلامية أو المسيحية، اعترف بمشروعية استقلال ذاتى للطوائف الدينية، إلا أن ذلك الاعتراف كان مقترنًا بصورة من صور التمييز تشوبها نظرة دونية، من جانب مجتمع الأغلبية، سواء كان من المسيحيين أو من المسلمين،أضف إلى ذلك أن وجود تلك الطوائف واندماجها القانونى، كان مشروطًا بالالتزام بالانخراط فى مجالات مهنية معينة، وبالنسبة لممالك الشمال كان ذلك الوجود مشروطًا بالإسهام فى تعمير المناطق التى تم الاستيلاء عليها. إذن فإن هذا الوضع يعتبر بعيدًا عن المثالية، ولا وجه للمقارنة بينه وبين قيمنا الحديثة القائمة على التسامح والتعددية الثقافية، وتنطوى ضمنيا على حقوق المواطنة، والإقرار بكافة الحقوق، وهذا ما لم يتوفر فى مجتمع ما قبل العصر الحديث.

استمرت هجرات الأندلسيين إما بسبب مشكلات سياسية واقتصادية داخلية وإما نتيجة لتقلص مناطقهم تدريجيا، أو حتى الاستيلاء عليها تمامًا بعد الاستيلاء على غرناطة عام ١٤٩٢،على

مدى فترة زمنية طويلة، اعتبارًا من القرن الحادى عشر، وحتى طرد الموريسكيين فى مطلع القرن السابع عشر. وكان الأندلسيون فى نزوحهم يقصدون جهتين، إحداهما الممالك المسيحية فى شبه الجزيرة، على أثر زحف الحدود السياسية نحو الجنوب، والاتجاه الثانى كان صوب الأراضى الإسلامية بالساحل الجنوبى للبحر المتوسط، وبخاصة منطقة الشرق الأوسط.

لهذا فإن الظواهر المتعلقة بهجرة أهل الأندلس تعتبر ميدانًا جذابًا لعمليات التبادل الثقافى . فقد كان الأندلسيون رسلاً انتقلت عن طريقهم الثقافة من الجنوب إلى الشمال ومن الشمال إلى الجنوب، فقد استقرت جماعات منهم - كالموريسكيين- طوال قرن من الزمان فى مناطق خاضعة للمسيحيين قبل أن يطردوا ويستوطن قطاع كبير منهم فى الشمال الإفريقى، لقد أفرز المهاجرون بعض العوامل الرئيسية المشتركة في كلا جانبى البحر المتوسط الغربى.

ثمة صورة أخرى من صور الهجرة الأندلسية تمثلت فى العلماء والصوفيين والأدباء الذين نزحوا إلى بلاد المشرق. ولست هنا بصدد التعرض لهذا الموضوع، فهو مطروح بالفعل فى الكتاب الحادى عشر من هذه السلسلة، وهو من تأليف ماريبيل فييرو **M. Fierro**، وقد أشرنا إليه سلفًا .

بيد أنه يتعين أن ننوه إلى أن الأندلس بوصفه مجتمعًا إسلاميا كان على اتصال ثقافى وفكرى وثيق مع الشرق، بشكل دائم، وذلك عن طريق تأدية فريضة الحج إلى مكة، ومن خلال سعى كل من كان يتطلع إلى أن يكون عالمًا، لتحقيق رغبة ملحة فى التزود بالمعرفة، إلى الارتحال وزيارة بلاد الشرق لمقابلة مشاهير العلماء فى مختلف البلدان الإسلامية.

كثيرون كانوا أولئك الذين أقاموا بعيدًا عن الأندلس، وخاصة فى مراحل تاريخية كان مناخ الإقامة فيها بهذه المنطقة غير مواتٍ لهم (كما حدث بالنسبة لبعض الصوفيين) أو لتوفر فرص العمل فى مناطق أخرى ، كما كان الحال فى مصر بعد غروب شمس الفاطميين.

كان الأندلس شأنه شأن أى مجتمع متعدد الأجناس، مهيئًا لتفجر الصراعات العرقية والدينية ، وهو ما تميل "أسطورة الأندلس" إلى محو هذه الصفة عنه، حيث تقدم لنا إطارًا مثاليا عاما يسوده جو من التعايش الغزلى بين ثلاث ثقافات. لقد كانت هناك ثلاثة أديان حقا (ولكن ثقافة واحدة فقط، هى الثقافة العربية الإسلامية) أفرزت حالة من الثراء الثقافى منقطع النظير، ساهمت فيه جميع الطوائف. إلا أن الأقليات الدينية مرت فى الأندلس بظروف عصيبة، وإن كانت تلك

الظروف لم تدم إلا فترة قصيرة، وإن كانت قاسية لما عمدت السلطة الحاكمة إلى فرض شكل من أشكال التعصب الديني، وخاصة في أوائل عهود المرابطين والموحدين، وكذلك كان حال المسلمين الرافضين لتلك الحركات السياسية والدينية.

عمد كل من المسيحيين واليهود إبان تلك الفترات إلى النزوح إلى المناطق المسيحية (وإن اتجه بعضهم إلى شمال إفريقيا ، كما سيتبين لنا) ، كذلك لجأ من وجهت إليهم تهمة الزندقة ، من المسلمين، إلى مناطق إسلامية أخرى. و من ناحية أخرى ، وفي الوقت نفسه تقريبًا، بدأت كفة المسيحيين ترجح ، وذلك اعتبارًا من القرن الثالث عشر، في شبه الجزيرة ، ثم بدأت في المناطق الشمالية مرحلة اصطبغت بتشدد، أخذ يتصاعد تدريجيا تجاه الديانتين الأخريين: الإسلام واليهودية .

نحن نقتحم إذن منطقة حظيت مؤخرًا باهتمام كبير من جانب جهات متعددة (أكاديمية، و ثقافية ، و صحفية، و سياسية،...إلخ)، منطقة شهدت ممارسة معتقدات مختلفة، أدت إلى نسج أسطورة، أسطورة جميلة، تطرح - ككل الأساطير- نموذجًا وتعضده . وكون هذا النموذج جذابًا وإيجابيا، لما يطرحه من إمكانية إقامة مجتمعات جماعية تخلو من التوترات والصراعات الداخلية، وتزداد ثراء

بفضل التعايش المتبادل، والتزاوج الثقافى، ينبغى ألا يدفعنا إلى إغفال أن الأسطورة شئ ، وتدوين التاريخ شئ آخر. فإذا أخفى النموذج المشكلات، فإنه أيضًا لا يطرح لها حلولاً. وانطلاقًا من الاهتمام بالحاضر حقيقة، سوف أحرص هنا على التصدى لموضوع التبادل الثقافى، وقضية بناء هويات مختلف الجماعات والطوائف، وهى هويات تخضع للتغيير حسبما تفرضه الظروف. فالقضية تتعلق بعالم (سوف أحاول التعرض له) تنطلق فى أرجائه الأفكار المنتشرة بين طوائفه ومعتقداته المتنوعة بسهولة ويسر، ولذلك يتعذر استيعاب كل ما يدور داخل محيط كل طائفة من طوائفه الدينية الثلاث دون الإشارة إلى طوائف أخرى. كلما انطوت الكيانات المتعددة على عناصر مختلفة (دينية، ثقافية، اجتماعية) مكتسبة بذلك أهمية كبيرة كانت أو صغيرة، على ضوء ما يطرأ عليها من تغييرات على المحيط الذى تعيش فيه، فعادة ما تكون هذه الكيانات متقلبة متغيرة. وسوف أحرص على إيضاح أن عملية التحول إلى دين من الأديان، لم تحدث انطلاقًا من مجرد اقتناع إيمانى بتعاليم هذا الدين ، إننى أعتقد أن مختلف عمليات الهجرة التى قام بها الأندلسيون، تكشف كيف أن الأمر كان عبارة عن اعتناق ثقافة ما، بالمدلول الأنثروبولوجى للفظ ، قبل أن يكون انخراطًا فى نظام دينى ، وأن

معدل هذا الانخراط ، إنما هو معدل متغير، ومحصلة مكونات متعددة.

ومن الناحية التأريخية أيضًا، نلاحظ أن الدراسات التى نحن بصددها الآن، قد واجهت عبئًا أيديولوجيًا قويًا طبقًا للمفاهيم المختلفة للهوية الإسبانية التى كانت مثار جدل منذ القرن التاسع عشر: وهو ما عرف بـ"مشكلة إسبانيا" فالمسألة تتعلق إذن بالهوية، الهوية الإسبانية هذه المرة . هوية قدّر لها أن تتسم بسمات غير قابلة للتغيير فى ذلك الحين.

ومن وجهة النظر الأوروبية، أو الغربية، فإن السمة الغالبة على العصور الوسطى الإسبانية، والتى ميزتها عن غيرها، إنما تكمن فى وجود الإسلام فى شبه الجزيرة الإيبيرية: صراعات طويلة، وتربص كل طرف بالآخر، وعمليات التأثير والتأثر، كلها عوامل تبرز جانبًا كبيرًا من تاريخ وثقافة مختلف الأقاليم الإيبيرية. قد بدت هذه السمة أحيانًا، كما حدث مؤخرًا، وكأنها عامل من عوامل الإثراء، وعنصرًا من عناصر شخصية متميزة، ولكنها بدت فى أحيان أخرى وكأنها سبب من أسباب تخلف الإسبان بالنسبة للأمم الأوروبية الأخرى. وكم آلمت الإسبان مقولة إن" إفريقيا تبدأ بجبال البرانس" منذ أواخر القرن الثامن عشر..إن "أصل الإسبان وكيانهم"

هذا إذا رجعنا إلى عنوان الكتاب الشهير لأميريكو كاسترو Americo Castro، نجد أنه قد تحدد دائمًا من منطلق العلاقة بذلك الصراع وتلك المواجهة، أو من منطلق عمليات الــتأثير المتبادل. هــذا ويتوقــف طرح هذا الموضوع على مواقف أيديولوجية(وفى هذا ينبغى أن نذكر بالجدل الشهير الذى دار حول هذه القضية بين رأى أميريكو كاسترو، وسانشيث ألبورنوث Sanchez Albornoz وسواء كان الطرح علــى ضوء الصراعات، أو مستندًا إلى عوامل التــأثير والتــأثر(ولــيكن واضحًا أن الأول لا يعنى إغفال الثانى، أى أن التــوترات والــصراعات بما فيها الحرب، لا تقف عائقًا أمام المؤثرات الثقافية) فإن الأقليــات تمثل محور تواصل حقيقى، ومن ثم، فإننا إذا أخذنا فى الحسبان تلك القائمة المطولة من الكتب، فإن من الصعوبة بمكان أن نضع تصورًا نزعم أنه تصور موضوعى، خاصة أن توظيف هذه الدراسات مــن وجهة النظر الأيديولوجية قد ميز مناطق عن مناطق أخرى مازالــت معلوماتنا الإيجابية عنها غير كافية. فمثلاً يؤكد سانشيث ألبورنــوث على أن استيعاب المستعرَبين(*) mozarabes للثقافــة العربيــة كــان استيعابًا سطحيًا، ومهما كان الأمر فإنهم لم يكونوا مؤهلين لنقل الثقافة الشرقية. ويرى أن الأندلس لم يشهد أى ثقافة شرقية، وأن ما كــان

(*) يجب أن نفرق هنا بين المستعرَب mozarabe (المسيحى الإسبانى الذى يقيم فى مملكة إسبانية مسلمة) وبين المستعرِب arabista (الباحث المهتم بالثقافة العربية). (المراجع)

هناك إنما هو مجرد مسحة خفيفة مآلها الزوال، وهذه المسحة فرضت نفسها على شعوب رومانية وقوطية وثقافتهم فى ذلك البلد الذى أطلق عليه " إسبانيا المسلمة"، ولهذا السبب لم تجر أبحاث حول التنظيم الاجتماعى للمستعربين فى القرن التاسع فى ليون Leon ، كذلك لم يتم إجراء أى دراسة بصدد التغييرات التى أدخلت على النظام الغذائى أو على تقنيات الزراعة ولا على مدى التأثير على المؤسسات العمرانية.

كل ذلك يتفق وتناول تاريخ الهجرة الأندلسية، موضوع هذا الكتاب، للعلاقة الوثيقة بين هذا التاريخ وتاريخ الأقليات فى مناطق شبه الجزيرة فى العصور الوسطى. ولقد كانت هذه الأقليات وما زالت، تمثل كما ذكرنا قيمة رمزية كانت محل تفسير طبقًا لوجهات نظر مختلفة.

لنستقرئ ثانية موضوع المستعربين mozarabes الذى تناولهَ الفصل الأول من هذا الكتاب . كان المستعربون بمثابة نقطة محورية فى عملية إقرار جذور فترة ما قبل الإسلام فى بنيان الكنيسة الإسبانية، ومقارها الأسقفية، كما كانوا عاملاً من أهم العوامل الأيديولوجية فى مسيرة الحملة العسكرية الإسبانية الطويلة على المناطق الإسلامية فى شبه الجزيرة والمغرب. كما كانوا أيضا هم

العنصر الأيديولوجى، الذى استعانت به الممالك المسيحية وخاصة مملكة أستورياس- ليون، للاضطلاع بمسئولية التصدى لموضوع التراث القوطى، ولإضفاء صفة الشرعية على عملية حرب "الاسترداد" . لقد تحول المستعربون فى أيامنا هذه، كغيرهم من الأقليات الأخرى فى أراضى شبه الجزيرة المسيحية والإسلامية، إلى عامل أيديولوجى على قدر كبير من الأهمية ، كما تعتبر هذه الأقليات دليلاً يحتذى لإضفاء صفة المشروعية على التعددية الدينية أو الفكرية فى المجتمعات المعاصرة، سواء فى العالم الأوروبى بما ينطوى عليه من مشكلات قومية متطرفة وأزمات أفرزتها الأقليات المهاجرة، أو فى العالم الإسلامى بما يكتنفه من تيارات إسلامية اصطبغت بصبغة دينية واحدة.

ويعد هذا الكتاب استكمالاً لكتابين لكل من مانويلا مارين M. Marin، وماريبيل فييرو M. Fierro سبق أن أشرنا إليهما ، ويتعين ألا يقرأ بمعزل عنهما ، وهو يتناول جماعات مختلفة فى المجتمع الأندلسى، سبق أن عاشت خارج الأندلس، وهذه المجموعات أو الجماعات أقدّمها فى هذا الكتاب، وقد راعيت فى طرحها تقسيمًا تاريخيا طبقًا للزمن الخاص بكل منهما، والمناطق التى توجهت إليها كل مجموعة . وسوف أبدأ بمناطق الشمال بحديث عن المستعرَبين Mozarabes واليهود والمدجنين.

(١)

المستعرَبون

أصل كلمة Mozárabe بالإسبانية ، وmossarabe بالقطالونية ، و Mocarab بالبرتغالية غير معروف. ويرى مستعربو القرن التاسع عشر arabistas أن هذا اللفظ جاء من كلمة "مستعرب" ، أى من تم تعليمه الثقافة العربية ، أو من يزعم أنه عربى ، وهذا اشتقاق مقبول، إلا أن هذه التسمية لم ترد فى نصوص الأندلس العربية ، ولم يأت ذكرها مطلقًا فى سياق الحديث عن الأقليات المسيحية التى عاشت فى كنف الأندلس ، بل وردت فى نصوص العصور الوسطى المسيحية عند الحديث عن المسيحيين الذين نزحوا من الأندلس ، أو أطلقت على من بقى من المسيحيين فى المناطق الإسلامية التى استولى المسيحيون عليها. وقد وصفهم الأسقف رودريغو خيمينيث Rodrigo Jiménez فى رسالة إخبارية له فى القرن الثالث عشر بالعرب المختلطين ، علمًا بأن لفظ مستعرَب mozárabe ذكر فى إحدى وثائق ليون León فى شهر مارس عام ١٠٢٤ ، تحدث فيها الكاتب عن ثلاثة مستعرَبين تحت عنوان Tres muzárabes de rextiraceros.

وأشار فى هذا النص إلى المسيحيين المستعرَبين الذين وجدوا فى ممالك الشمال منذ أن بدأت مملكة ليون **León** حملاتها التوسعية ، وحتى غزو طليطلة فى عام ١٠٨٥ ، إلا أن النص خلا من الإشارة إلى المسيحيين الذين بقوا فى الأندلس ، وهؤلاء سوف أكتفى بمجرد الإشارة إليهم فى معرض الحديث (يرجع القارئ المهتم إلى الجزء الخاص بماريبيل فييرو سالف الذكر).

هذا ويطلق لفظ مستعرَب **Mozárabe** أيضًا على الأعمال الفنية والمعمارية والموسيقية ، وعلى الصور التوضيحية فى المخطوطات، أو المتعلقة بطقوس المستعربين ، وقد أطلق أيضًا على الأساليب الفنية التى كانت تمارسها جماعات أو أشخاص غير مستعرَبة ، كما هو الحال بالنسبة لفن المدجنين **Mudéjares**. أى أن الأسلوب الفنى المستعرَب لا يعنى بالضرورة أنه ظهر فى وجود سكان مستعرَبين.

مملكة أستورياس وليون:

عاش المستعرَبون فى مملكة أستورياس وليون منذ القرن التاسع على الأقل . وقد جاءوا ضمن وفود المهاجرين التى تدفقت من الأندلس ، وهم فى غالبيتهم من رجال الدين والرهبان. وقد عاشوا هناك جنبًا إلى جنب مع المدجنين ، واختلطوا معهم فى بعض

الأحيان ، وعاشوا فى مناطق استولت عليها مملكة ليون الفتية. وللتعرف على موضوع أصل السكان المستعربين والمدجنين فى منطقة حوض نهر الدويرو Duero ، يتعين أن نتعرض لقضية جدلية قديمة دارت حول إخلاء هذه المنطقة من السكان.

لعل أهم من تعرض لهذا الجدل فى حينه هو منينديث بيدال **Menéndez Pidal** ، الذى يرى أن عملية الإخلاء تلك لم تحدث مطلقاً، وسانشيث ألبورنوث **Sánchez Albornoz** الذى يؤكد وجود منطقة خالية إستراتيجية حول نهر الدويرو كانت تفصل بين المسيحيين والمسلمين، لحمايتهم من الجيوش عند وجود منطقة فاصلة يتعذر فيها إمداد الجيوش بالمؤن. ولعل وجود الأسماء التى تنتمى إلى أصول عربية بوفرة فى مملكة ليون ، اعتبارًا من القرن العاشر على الأقل ، إلى جانب اتساع المواقع الجغرافية ذات المسميات العربية فى المنطقة نفسها ، من أهم المؤشرات التى ترجح وجود تجمع سكانى كبير من أصل مستعرب ، ممن هاجروا فى فترات سابقة ، وهذا التجمع أعاد تعمير المنطقة ، ومما شجع هؤلاء السكان على الهجرة إلى ليون السياسة التى كان يتبعها ملوك ليون ، إضافة إلى عمليات الاضطهاد التى تعرضوا لها فى الأندلس.

وجاء فى وثائق ليون ، منذ القرن التاسع ، سيل جارف من المسميات التى ترجع إلى أصول عربية. ومن أهم الخصائص

المميزة لتلك المسميات ما يتمثل فى المحيط العائلى الواحد من وجود أسماء عربية وغير عربية. وترجع هذه الخاصية التى تميز منطقة حوض نهر الدويرو، إلى وجود عنصر مستعرَب **Mozárabe** ، هاجر من الجنوب وأقام فى هذه المنطقة على مدى القرن العاشر الميلادى. وقد أطلق اسم مستعرَب على هذا العنصر طبقًا لثلاثة معايير. تعريب تؤكده الأسماء ، واتصاله بالمحيط الكنسى، بل والانتماء إليه دليلاً على أن قطاعًا من هذا العنصر على الأقــل كان مســيحيا ، وأخيرًا – كما سبق أن أشرنا ، وهذا عامل جوهرى– يتمثل فى أن المناطق التى يقيم بها هذا العنصر كانت خالية من السكان، وأنها شهدت تدفقًا بشريا فى الفترة التى سبقت الإشارة إليها فقط. وإذا اعتبرنا المعيارين الأول والثانى أمرًا مسلمًا به فإن الافتراض الخاص بالمنطقة الخالية الإستراتيجية تكتنفه الشكوك ، وكل الدلائل تثير فى الأذهان أن سكان تلك المنطقة الأصليين أقاموا بها إقامة دائمة وليست متقطعة. وإذا كان هذا لا يتعارض مع وجود حركة هجرة مؤكدة من الجنوب فإن هذه الحركة لم تكن بالكثيفة كما يرى مؤيدو نظرية الإخلاء السكانى. فالأبحاث الأثرية التى أجريت حول أسماء المعالم الجغرافية فى السنوات الأخيرة تشير بوضوح كبير إلى أن حركة الاستيطان البشرى فى منطقة سلسلة الجبال الوسطى ووادى نهر الدويرو كانت تتسم بالاستمرارية إبان العصور الرومانية والقوطية.

ولقد أكدت أبحاث أجريت مؤخرًا، مستندة فى ذلك إلى نتـــائج تحليلات خاصة بمباحث حول أسماء بعض الأعـــلام الجغرافيـــة، أن سكانًا من المسلمين والمسيحيين سبق أن أقاموا إقامة ثابتة ومـــستقرة بالمنطقة. وتشير الوثائق المحفوظة إلى أنه قبل عام ١٠٨٥م، وهـــو العام الذى تم فيه غزو طليطلة، وآبله Ávila، وســـيغوبيا Segovia ، كانت هناك فى تلك المناطق أسماء أعلام جغرافية تؤكد وجود سكان يتحدثون العربية.

ويتكرر الوضع إلى حـــد كبيـــر فـــى كـــل مـــن مقـــاطعتى بورغوسBurgos وسورية(*) الحاليتين : ثمة مؤشر على وجود سكان أصليين أقاموا فى تلك المناطق بعد تعريبها، بل وأسلمتها، وذلك قبل إقامتهم فى المناطق المسيحية.

هناك أمثلة معروفة بين المنتسبين إلى الطبقـــة الأرســـتقراطية تتحدث أيضًا عن وضع العرب المختلطين : هنـــاك انييغـــو أرســـتا (٨٠٣-٨٥١) Iñigo Arista، أول ملوك نبرّة Navarra، ربما كان ابنًا لأحد المواطنين الباسك Vascos، الذين سبق أن دخلوا فى الإســـــلام، ثم عادوا بعد ذلك إلى ديانتهم القـــديمة، وعمومًا، فقـــد كان لـــه أخ غير شقيق مسلم، وصهر مسلم . مثال آخـــر : فـــى أوائـــل القـــرن

(*) قشتالة القديمة. (المراجع)

العاشر، تزوجت إحدى الأميرات المسلمات المنتسبات إلى الأسرة الحاكمة فى سرقسطة بنى قاسى (وهم بدورهم من سلالة نبيل إسبانى هو الكونت كاسيو)، تزوجت الملك فرويلا Fruela الثانى، ملك ليون، بعد أن اعتنقت المسيحية وأصبح اسمها أورّاكا Urraca.

كل هذا لا ينفى أن مستعربين هاجروا فى عهد ألفونسو الثالث، قاصدين المناطق الشمالية. وفى حوالى ٨٥٠م قامت حركة عرفت باسم "شهداء قرطبة" : وهم جماعة من المسيحيين استفزهم الانحسار المتنامى للهوية الدينية والثقافية (تراجع تدريجى للغة اللاتينية، واللغة الرومانثية(*)، وإحلال العربية مكانهما)، قامت هذه الجماعة بمحاولة لدعم المسيحيين تمثلت فى توجيه السباب للإسلام علانية، مما أدى إلى إبطال العمل بعهد "الذمة" وكانت هذه الشتائم بمثابة إقدامهم على الانتحار بالفعل حيث نفذ فيهم حكم الإعدام (انظر. المرجع المذكور لماريبيل فييرو Fierro M.). وقعت تلك الأحداث فى عهد عبد الرحمن الثانى ومحمد، وترتب عليها موجة من الهجرة، دامت طوال قرن من الزمان، وإن كانت بأعداد محدودة. أقام المستعربون، كما أقام غيرهم من المهاجرين من الشمال فى محيط عائلى، أو جماعات من الرهبان، خاصة فى الجزء التابع

(*) هى اللغة المشتقة من اللاتينية والتى كان يتحدثها بعض الأقاليم الإسبانية. (المراجع)

لمملكة ليون، بوادى نهر الدويرو. قدموا من منـــاطق شـــهدت فيهـــا الزراعة تقدمًا تقنيًا وهندسيًا مهمًا، اعتبـــرت إضـــافة جديـــدة إلـــى الأساليب التقليدية السائدة فى منطقة البحر المتوسط. وأبـــرز كليـــك Glick،انتشار استخدام زيت الزيتون، كمؤشر لمدى تأثير المستعربين فى اقتصاد مملكة ليون.

يقول المؤرخ العربى ابن حيان أن سموره Zamora اســتقبلت مسيحيين وفدوا من طليطلة فى عام ٨٩٣، وأن هـــؤلاء المهـــاجرين أقاموا سور المدينة، وما إن تم تحصين السور، إلا وهرع إليه قـــوم من جانب الحدود العربية. كما استقبل الفونسو الثالث شخصيا مطران إيركافيكا، وكان مستعربًا، ثم منحه حـــق الإقامـــة فـــى أوريـنـــسى Orense. كما ابتاع كنيسة القديـــسين فاكونـــدو Facundo وبريميتيبـــو Primitivo، وكانت خرابًا، وذلك فى عام ٩٠٤، لتكون مقرًا يقيم بـــه رئيس دير يدعى الفونسو مع رفاق له، قدموا من الأندلس، وأصبحت هذه الكنيسة فيما بعد هى دير ساهاغون Sahagun . واختـــار الملـــك رئيس الدير ألفونسو هذا ليكون معلمًا لابنه الأكبر السيد غارثيا Don García. وأقام عدد من الرهبان الذين قدموا من قرطبة أديرة إسكالادا Escalada، وماثوتى Mazote، وكاستانييدا Castañeda. كذلك أقامـــت سيدة تدعى بالماريا Doña Palmaria مع رفيقاتها، وكن قد قدمن أيضًا من الأندلس، دير فيمى Vime، فى شـــنبرية Sanabría، ويحتمـــل أن

يكون هذا الموضوع قد تكرر بالنسبة لأديرة أخرى، بقى فيها ما يحمل اسم مارتينوس أبا كوردوينسيس**Martinos Abba Cordorensis**.

لم يسهم هؤلاء المهاجرون فى نقل المعـــارف التـــى تتعلـــق بالخصائص الفنية العربية - والتى تركت آثارها فى عمارة المنطقة- فحسب، بل أسهموا أيضًا فى نقل اللغـــة العربيـــة فترجمـــوا إليهـــا مخطوطات الأديرة اللاتينية. وهنا يتعين أن نأخذ فـــى الاعتبـــار أن سفر المزامير، والمزامير، وكتب اللاهـــوت، ســـبق ترجمتهـــا فـــى الأندلس إلى اللغة العربية، وأن المستعرَبين كانوا يقـــرءون الكتـــب الدينية بالعربية، فقد كانوا يجيدونها أكثر من إجادتهم للغـــة اللاتينيـــة (انظر الفصول الخاصة بهذا الموضوع بـــالمرجع الـــسالف ذكـــره لماريبيل فييرو **M. Fierro**) . ويرجع مخطوط ديـــر ســـيلوس **Silos** بعنوان **Breviarium et missale Mazarabi cum** ، والمعجـــم العربـــى اللاتينى، إلى القرن العاشر، وقد كتب كلاهمـــا جـــزئيا على الورق (وهذا كان يمثل إضافة يرجع الفضل فيها إلى المـــستعرَبين) وهمـــا محفوظان حاليًا فى ليدن **Leinden** .

لم تنقطع علاقات المستعرَبين فى ليون بإخوانهم فـــى الـــدين بالأندلس مطلقًا، وهذا ما تؤكده عمليات تبادل المخطوطات ورفـــات القديسين فيما بينهم. ويُعتبر رجال الكهنوت المستعرَبون هـــم ورثـــة

الكنيسة القوطية الغربية. ومن الغريب أن رجال الكهنوت هؤلاء، الذين تعمقوا فى دراسة الثقافة العربية، هم الذين أدخلوا فى الممالك الشمالية فكرة التواصل أو الاستمرارية القوطية باعتبارها من العناصر الشرعية، كما أدخلوا أيضا فكرة الاسترداد(*) **Reconquista**، التى ظلت غائبة طوال القرن الأول من توسع الممالك المسيحية نحو الجنوب. بفضل هؤلاء المستعربين جزئيا، تحولت أوبييدو **Oviedo** أولاً، بل وليون بالذات، إلى مركز إشعاع للكتب القديمة، تكدست فيهما مخطوطات، لم تنعكس آثارها على إثراء الثقافة الكنسية فحسب، بل ساعدت وأسهمت فى أن تصبح مملكة ليون صورة طبق الأصل واستمرارًا لمملكة القوط. ولقد واصلت المخطوطات تدفقها من جنوب شبه الجزيرة طوال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين بفضل تدفق هجرات المستعرَبين الأندلسيين.

كان هناك كثيرون ممن هم على دراية بالثقافة العربية فى بلاط ليون ومقر الأسقفية، بل وشغل بعضهم مناصب مهمة ، علاوة على الوصى على ولى العهد الذى أشرنا إليه، كان بين رجال القصر الملكى عشرة قضاة، وخمسة معاونين، وثلاثة خدم للملك فى وظائف

(*) مصطلح "الاسترداد" لا يقبله الباحثون الإسبان كلهم، فالاسترداد هو العودة إلى امتلاك شىء كان موجودًا وهناك مؤرخون إسبان يرون أن المسلمين هم الذين أوجدوا تلك القوميات. راجع أميريكو كاسترو ومناظراته مع سانشيث ألبورنوث (المراجع).

قضائية. أضف إلى ذلك، مفوضًا أو مفتشًا أمنيــا، وقاضــيًا خاصــا بالملك، وأمين صندوق (خازن)، وكونت، وأربعة من كبــار الخــدم، ومفوضين، وخازن مؤن، وفارس للملك (حامل راية) فـــى قــشتالة، ورئيس شرطة (صاحب الشرطة) فى مدينة تورو Toro وآخر فـــى ساهاغون Sahagon، وهذا الأخير جاء من قرطبة فى عـــام ١٠٠٣، لعقد اتفاقات سلام مع المسيحيين بعد وفاة المنصور. كان يغلب على أسماء هؤلاء العاملين لقب القرطبـــى والطليطلـــى. ولعـــب هـــؤلاء الأشخاص، المستعرَبون من الأعماق، بما كانوا يتميزون به من إلمام بشئون الإدارة، والتنظيم، والسياسية، دورًا رائدًا فى تطـــوير مملكـــة ليون الشابة . وفى عام ٨٨٣، كلـــف ألفونـــسو الثالـــث المـــستعرَب دولثيديو Dulcidio، الذى لجأ من طليطلة، وألحقه إلى بلاطه، بمهمـــة فى قرطبة، وكان لهذه المهمة صدى كبير وانعكاس على ثقافة مملكة أستورياس – ليون، وكان دولثيديو قد نقل إلى أوبييدو رفات القـــديس إيولوخيو(*) Eulogio، والقديسة ليوكاديا Leocadia قبل أن يتم تعيينـــه أسقفا لسلمنكا Salamanca.

لا يتسع المجال هنا لسرد الاتصالات العديدة والمتكـــررة مـــع

(*) كان إيولوخيو هذا يسب الإسلام علنًا فى قرطبة إبان خلافة عبد الرحمن الثانى، وقـــد صـــبر الخليفة كثيرًا على تطاوله، حتى توفى، وما إن تولى الخلافة من بعده ابنه محمد حتـــى أمـــر بإعدام إيولوخيو، وهكذا انتهت الفتنة. (المراجع)

الأندلس عبر المستعربين، ولكن يتعين علينا أن نأخذ بعين الاعتبار على سبيل المثال لا الحصر الاتصالات التى أجراها فرناندو الأول ملك ليون، وبصورة خاصة اتصالات الفونسو السادس مع مملكة طليطلة العربية، ومع جماعات المستعربين فى قلنبرية coimbra ، ولا ينبغى أن نغفل أيضًا البعثة التى أرسلها الفونسو السادس إلى إشبيلية فى عام ١٠٦٢، والتى أسفرت أساسًا عن نقل رفات القديس إيسيدور San Isidor من إشبيلية إلى ليون. وكان مهندس تلك الاتصالات من قبل التاج المسيحى مع المسلمين الكونت المستعرَب سيسناندو دافيد Sisnando David، وكان فى خدمة السلطان المعتضد أولاً، ثم التحق فيما بعد بخدمة فرناندو الأول، وهو الذى أوصاه بغزو قلنبرية coimbra عام ١٠٦٤، وقد عُين حاكمًا لها فيما بعد. وعين أيضًا مستشارًا لألفونسو السادس، وشارك فى المفاوضات التى أجريت بشأن استسلام طليطلة.

إذا كانت وثائق ليون الخاصة بالعصور الوسطى المتقدمة زاخرة بأسماء عربية لأشخاص ولأعلام جغرافية ، فهى غنية أيضًا بمفردات عربية الأصل ، تؤكد مدى التأثير العظيم الذى أحدثته المؤسسات الإدارية الإسلامية التى أدخلها وأدارها المستعربون. قلما وجدت هذه الألفاظ فى المجال الزراعى، ولكنها موفورة فى المجال العمرانى والمناصب الإدارية المدنية، منها على سبيل المثال Alvasile

أى الوزير، و Sahbasçorta أى صاحب الشرطة ، و zavazouke أى صاحب السوق، و Alcalde أى القائد Sialcadei، والقاضى almoxerif أى المشرف، هذا بالإضافة إلى عدد لا نهائى من الألفـــاظ المتعلقـــة بالجانب الاجتماعى والإدارى. وتكشف المفردات المتعلقـــة بـــالنظم العمرانية، والأحياء، والتحصينات، والعناصر المتصلة بالمدن، مـــدى التأثير الإسلامى العربى.

فى أوائل العصور الوسطى كانت حالات الإشغال الحـــضرى والزراعى منفصلة بعضها عن البعض الآخر فى الممالك المسيحية ، خلافًا لما كان يجرى فى الأندلس. وقد لمست أول حركة للتمركز فى أواخر القرن العاشر، ثم تصاعدت فى القرن الحادى عشر. أما ذلـــك الوضع الحضرى المبكر فى كل من قشتالة وليون فإنه يتميز بتـــأثر شديد بالنماذج الإسلامية، ربما كان ذلك نتيجة لتقليد أقرب النمـــاذج، أو أنه يرجع إلى مكانة صاحب السيطرة، وربما كان ذلك أيضًا نتيجة لهجرة المستعربين. ومن السمات المميزة لهذه العملية، انتشار الكلمة العربية المدينة (medina) ، والتى أفصح خايمى أوليفر Jaime Oliver عن مدلولها كباعث للحياة الحضرية فى قشتالة. وقد ظهر هذا اللفـــظ فى مناطق لم يشغلها المسلمون على الإطلاق، وخاصة فـــى شـــمال قشتالة القديمة، بل وفى بلاد الباسك حيث كانت كلمة مدينـــة medina تعنى مدينة محاطة بسور، بها قلعة، وساحة أو سوق. ومـــن دلائـــل

ذلك أيضًا الأسماء المكانية المشتقة من كلمة السوق zoco، التى نشاهدها فى بلاد (الباسك) "ozoga" أو "asoka" . وفيما يبدو أن الصيغ الحضرية عمومًا كانت قد اصطبغت بدلالات إسلامية فى عهود مبكرة كما تشير ألفاظ مدونة بالوثائق، منها arrabal بمعنى الربض، adarve بمعنى الدرب، و Alcazaba وتعنى القصبة، و aldea وتعنى الضيعة... إلخ، وهى ألفاظ تدل على أجزاء طبيعية من المدينة. ثمة ألفاظ أيضًا، سبق أن ألمحنا إليها، تعنى الإشارة إلى السلطات والمؤسسات الحضرية. وقد حدث فى عصر متأخر أن تطور المدن فى قشتالة وليون أصبح يمضى فى خط متواز مع المدن الأوروبية، وعندئذ ظهر نوع آخر من الألفاظ مثل burgo أى برج، وظهر هذا الشكل فى أول الأمر على طول الطريق إلى شنت ياقب أو سانتياغو Santiago.

نستطيع أن نؤكد إذن أن عنصر المستعربين Mozárabe اكتسب أهمية جوهرية إبان القرون الأولى من عمر مملكة ليون. وبمرور الزمن أخذ المستعرَبون فى الذوبان مع بقية المواطنين المسيحيين بصورة يصعب تمييزها، كما بدأت عملية إحلال عناصر أوروبية استقدمت من بلدان أوروبية أخرى (وخاصة من فرنسا بناء على أمر كلونى Cluny)، أو موظفين من اليهود الذين وفدوا من الأندلس محل الموظفين من المستعربين فى البلاط .

طليطلة :

استولى ألفونسو السادس على مدينة طليطلة فى عام ١٠٨٥م، وهذه المدينة جديرة باهتمام خاص، فقد كانت تضم بين سكانها عددًا كبيرًا من المستعربين Mozárabe. ولم تتأثر هذه الفئة بوجود رهبان دير كلونى Cluny المكثف فحسب، بل لأن أهمية جموع المستعرَبين فقدوا أهميتهم وفاعليتهم فى نظر القشتاليين. علمًا بأن المستعرَبين كانوا هم أكثر العناصر الديموغرافية أهمية فى طليطلة، وأهم علامات تفرد المدينة وتميزها حتى القرن الثالث عشر. ثم انضم إلى طائفة المستعرَبين فرقة أخرى أطلق عليهم اسم المستعرَبين الجدد neomozárabes، وهم المسلمون الذين تحولوا بعد الغزو إلى المسيحية. حافظ المستعرَبون على استخدام اللغة العربية، سواء كان ذلك حديثًا أو كتابة على مدى زمنى طويل، وهذا ما يتأكد من خلال ١٢٠٠ سند شرعى (تم نشرها حتى الآن) باللغة العربية، يرجع تاريخ توثيقها إلى أواخر القرن الثالث عشر. وتدل هذه الوثائق العربية والتى تمت صياغتها بلهجة عامية على استخدام اللغة العربية فى التخاطب فى الفترة نفسها .

هاجر من طليطلة مستعرَبون قاصدين أراغون Aragon ، حيث منحهم ألفونسو الأول امتيازًا عام ١١٢٦، كما اتجهوا إلى

الشرق Levant، وخاصة إلى مملكة فالنسيا Valencia، بعد استيلاء السيد El Cid عليها فى عقد التسعينيات . وكان السيد نفسه من المستعرَبين الجدد قبل الاستيلاء على المدينة أى بوصفه مسيحيا مستعربًا، فى مملكة سرقسطة Zaragaza المسلمة. فى ذلك التاريخ قرر غريغوريو السابع Gregorio VII ، فى محاولة منه، لتركيز سيطرة روما على الحياة الكنسية، وتوحيد طقوس الصلاة، واقتلاع ما أسماه بالخرافة الطليطلية، وهى لم تكن سوى مجرد صلاة وترانيم مستعربَة، مشتقة من الطقوس القوطية القديمة. وقد أعيدت هذه الشعيرة فى عام ١٥٠٠ على يد الكاردينال ثيسنيروس Cisnero، وهذا دليل واضح على وجود جماعات احتفظت بذكرى هويتها المستعربَة حتى ذلك الحين فى طليطلة.

المغرب :

كان عام ١١٢٥ عامًا حاسمًا بالنسبة لوضع الجاليات المسيحية فى الأندلس. فى هذا العام، وصل ملك أراغون Aragón، الملك ألفونسو الأول المحارب على رأس جيشه إلى غرناطة. إلا أن حملته العسكرية تلك باءت بالفشل، فاضطر إلى الانسحاب. وترتب على هذه الهزيمة أن اضطر من انضم إليه من المسيحيين إلى الهجرة نحو الشمال. وقررت السلطات المسلمة (المرابطون فى ذلك الحين) من

جانبها إبعاد المسيحيين المقيمين على أرضهم، والذين نقضوا عهد الذمة، من الأندلس إلى المغرب، وذلك بدعوى مساندتهم لعدو خارجي. وقد تمت عملية الإبعاد الأولى عام ١١٢٦، ونفذت عملية أخرى عام ١١٣٨. استوطن هؤلاء المسيحيون فى مدن مثل مكناس، أو سلا، أو فاس، أو مراكش، وصرح لهم ببناء كنيسة فى الأخيرة. ثم انضم عدد كبير من هؤلاء المستعربَين إلى صفوف فرق جيش المرتزقة المسيحيين، التى شكلها المرابطون فى المغرب. وهؤلاء المسيحيون الذين أبعدوا كانوا قد اختاروا ألا يتبعوا ألفونسو المحارب لدى عودته نحو الشمال المسيحى، مفضلين البقاء فى المناطق الإسلامية التى ألفوا الحياة بها. وثمة عدد كبير آخر من المسيحيين دخل فى الدين الإسلامى. هذا كله أدى إلى خلو الأندلس من المسيحيين فى أوائل القرن الثالث عشر، عدا المرتزقة، أو الأسرى، أو التجار القادمين من مناطق أخرى، أى المسيحيين الغرباء، وهم ما يمكن أن نطلق عليهم اسم المستعرَبين الجدد. وتكمن أهمية هذه المسألة فى أنها تعنى أنه لم يكن فى المناطق الأندلسية التى تم الاستيلاء عليها فى القرن الثالث عشر سكان مسيحيون ترجع أصولهم إلى فترة ما قبل الغزو الإسلامى، وفى عهد قريب ادعت بعض الجماعات القومية وجود مواطنين مستعرَبين فى فالنسيا عندما استولى عليها خايمى الأول ملك أراغون **Aragón**، وأن هذا

يعنى أيضًا أن لغة فالنسيا (المشتقة من الرومانثيرو التى يتحدث بهـــا هؤلاء المستعربون)، إنما هى لغة مختلفة عن اللغة القطالونية، التـــى أدخلت عن طريق الغزاة الأراغونيين - القطالونيين. ولعل إثبات هذه النقطة لا يتيسر بما لدينا من دلائل أو مؤشرات تاريخية.

لقد اختفى وجود المسيحيين الذين ترجـــع أصولهـــم إلى فترة ما قبل دخول الإسلام إلى الأندلس، اعتبارًا من أوائل القـــرن الثـــانى عشر. أما بالنسبة لليهود، فالوضع يختلف.

(٢)

اليهود

مر اليهود بظروف حياتية غاية فـــى القـــسوة إبـــان العـــصر القوطى، مما جعلهم يستقبلون وصول المـــسلمين إلـــى أرض شـــبه الجزيرة بارتياح منقطع النظير، متوسمين فى ذلك متنفـــسًا لتحـــسين أحوالهم، فسرعان ما انخرطوا فى الثقافة العربية. وقد شـــهد يهـــود الأندلس، بما أسهموا به من مشاركة تامة فى الثقافة العربية الإسلامية قرنًا ذهبيا حقيقيا فى عصـــر الخلافـــة الأمويـــة، وعـــصر ملـــوك الطوائف، فيما يتعلق بالفكر والثقافة . ويعتبر هذا القرن صفحة مـــن أنصع صفحات تاريخ اليهودية فى العصور الوسطى. ولقد كان ليهود الأندلس دور غاية فى الأهمية فى نقل معارف الأندلس إلى أوروبـــــا. لم تحاصرهم قيود مهنية، طبقًا للشريعة الإسلامية (خلافًا لمـــا كـــان يحدث لهم، كما سنرى، فى المناطق المسيحية) حتـــى بلغـــوا شـــأنًا عظيمًا فى عصر الخلافة الأموية وعصر ملوك الطوائف فيما بـــين القرنين التاسع والحادى عشر، ســـواء كـــان ذلـــك فـــى الجوانـــب الاجتماعية أو الاقتصادية أو الثقافية. ونظرًا لأن الثقافـــة الإســـلامية الرفيعة، وخاصة فيما يتعلق بالجانب العلمى (الفلـــك، والرياضـــيات،

والطب)، لم تكن حكرًا فى الأندلس على الفئات الكنسية، كما كان الحال في المناطق المسيحية المعاصرة، تمكن اليهود من المشاركة فيها، خاصة وأنهم أصبحوا مستوعبين للثقافة العربية بشكل كامل.

لا يستطيع أحد أن ينكر مدى الأهمية الثقافية لعطاء يهود الأندلس المعربين هؤلاء، فى طليطلة بوجه خاص، من خلال ما يعرف بمدرسة المترجمين؛ فقد كانوا هم المنفذ الذى عادت عبره إلى أوروبا المعارف الكلاسيكية القديمة، وبخاصة المعارف اليونانية القديمة، بعد أن تاهت في أوروبا العصور الوسطى ، لكى تتمخض عما أطلق عليه اسم نهضة القرن الثانى عشر. ولكننى لن أتعرض هنا لهذا الموضوع، نظرًا لأنه عولج فى كتاب ماريبيل فييرو M. Fierro الذى سبقت الإشارة إليه مرارًا، علمًا بأننى أدرك جيدًا أن إغفال الظاهرة الثقافية التى رسمها يهود الأندلس فى قشتالة إبان العصور الوسطى (وخاصة فى طليطلة) يعنى تهميش واحد من أهم وأبرز المظاهر، بل وربما يكون المظهر الوحيد الذى يتعلق بتاريخ أوروبا.

قشتالة :

كان هناك فى شمال شبه الجزيرة الإيبيرية بعض الجاليات اليهودية الصغيرة والمتناثرة، قبل أن يبدأ استيلاء المسيحيين على

مناطق تابعة للمسلمين. ولم يكن إغلاق الحدود مطروحًا كما حدث بالنسبة للمستعرَبين، فلم تنقطع العلاقات وعمليات التبادل بين مختلف الجاليات ونظيرتها فى الجنوب، خاصة إذا وضعنا فى الاعتبار أن سرقسطة **Zaragoza**، وتوديلا **Tudela**، وطليطلة، المتقاربة فيما بينها كانت تعد من أهم مراكز الثقافة اليهودية العربية. ولقد توفرت لدينا البراهين التى تؤكد إجراء الاتصالات بين يهود الجنوب ويهود الشمال بفضل الرحلة التى قام بها الطبيب والسفير اليهودى حسداى ابن سبروت **Hasday Ibn Saprut**، الذى أوفد من قرطبة إلى نبرَّة **Navarra** وليون **León**.

ولكى نعرض الحديث عن سكان قشتالة من اليهود، يتعين أن نرجع إلى غزو المسيحيين لطليطلة، فلم ينضم عدد كبير من السكان اليهود آنذاك فحسب، بل إن تلك الحملة توافقت زمنيا مع بداية نزوحهم من الأندلس، حيث تدفقت موجات من اليهود بعد استيلاء المرابطين عليها أولاً، ثم بعد غزو الموحدين لتلك المناطق. اتسم حكم هاتين الدولتين الناشئتين فى بلاد البربر، والذى تأسس على المنطلق الدينى، بالشدة والتعصب، وترتب على ذلك تدهور أحوال الأقليات الدينية فى الأندلس.

احتل اليهود مناصب مهمة فى بلاط المسلمين، كالأطباء (تمامًا كما حدث فى بلاط كل من قشتالة وأراغون)، فقد كان لدور طبيب

البلاط نفوذ كبير نظرًا لقربه من الحاكم، فغالبًا ما كان يقوم بدور المستشار بل وبمهام السفير (كما حدث بالنسبة لحسداى بن سبروت، طبيب عبد الرحمن الثالث، والذى أشرنا إليه سابقًا). تلك المهام أتاحت لعدد منهم فرصة المشاركة فى العمل العام والسياسى فى بلاد الأندلس. وإبان حكم ملوك الطوائف كان دور الطبيب أكثر تميزًا، وخاصة فى سرقسطة وإشبيلية والمريَّه **Almería**، حيث كانت بعض الأسر اليهودية من رجال الحاشية تضم بين أفرادها وزراء بارزين. ويتمثل أكبر مثل فى هذا السياق فى عائلة بنى ناغريلا **Nagrella** فى غرناطة، التى كان يوسف هانجيد أحد أفرادها، وزيرًا قويًا فوق العادة، وصفه أعداؤه بأنه كان أقوى من السلطان نفسه. استطاع هذا الوزير بما كان يتمتع به من سلطات أن يخمد تمردًا شعبيا عام ١٠٦٦ قتل فيه ابن ناغريلا مع عدد كبير من يهود غرناطة. وكان منهم أيضًا يوكوتئل بن حسن **Yaqutiel Ibn Hasan** من سرقسطة، الذى مات ميتة بشعة . ولقد كان من الأسباب التى أدت إلى فسخ عهد الذمة تكليف أفراد من اليهود أو المسيحيين بتطبيق مقتضيات السلطة على المسلمين، غير أن تلك الفتن أو حركات التمرد كانت تصطدم بموانع تمثلت فى كبار الموظفين من اليهود المسئولين فى الغالب عن المالية والضرائب، ومثل هذه الوظائف تفتقر كثيرًا إلى الشعبية. ولقد تسببت حركات التمرد ضد كبار المسئولين اليهود (وانسحب ذلك أيضًا على بقية السكان اليهود) فى موجات الهجرة الأولى نحو المناطق

المسيحية . وقد ازداد الوضع صعوبة بتولى المرابطين زمام الحكم، حيث قاموا بفرض التزامات ضرائبية خطيرة للغاية. حدثت تلك الهجرة عندما هاجر الكاتب والمفكر الشهير موسى بن عزرا، الذى هاجر مضطرًا، وكان من أسرة ذات شأن كبير فى غرناطة، وأشار فى كتاباته إلى مدى ما انتابه من كآبة إزاء ظروف الحياة المعيشية والاجتماعية والفكرية التى واجهها بين مسيحيى الشمال(*)، الذين وصفهم بألفاظ غاية فى الخشونة.

كانت أبرز هذه الهجرات وأكثرها أهمية تلك التى حدثت فى عام ١١٤٦، وهذا التاريخ يعنى بداية عصر دولة الموحدين فى الأندلس. أمعنت هذه الدولة فى اضطهاد الأقليات الدينية، بل وصل بها الأمر إلى إجبار تلك الأقليات على اعتناق الدين الإسلامى خلال سنوات حكمها الأولى. ليس ثمة ما يؤكد من معلومات حول الظروف التى تم فيها ذلك التحول الدينى القسرى، كما لا تتوفر المعلومات التى تتحدث عن الفترة التى سادت فيها تلك الظروف (مما كان له أثر فى إلغاء عهد الذمة، ويخالف -بالتالى - نصوص الشريعة الإسلامية) فالمصادر العربية لم تتعرض لهذا الموضوع إلا بمجرد

(*) يرى اليهود أن معاملة المسلمين لهم كانت أفضل كثيرًا من معاملة المسيحيين . انظر "بين الإسلام والغرب" ترجمة ممدوح البستاوى، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المشروع القومى للترجمة ، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥. (المراجع)

التلميح، ربما لأن إلغاء عهد الذمة كان مثارًا لجدل عميق. على أيـــة حال فإنه سواء كان الاضطهاد أو التحول الدينى، يبدو أنهما استغرقا فترة زمنية وجيزة ، استعاد بعدها من تحول عن دينه قسرًا، حريــة العودة إلى ديانته الأصلية. فقد استردت الأقليات اليهودية أوضـــاعها فى عهد الخلفاء الموحدين التالين ، ومن جاء بعدهم (بنو مرين فـــى المغرب، وبنو نصر فى الأندلس)، بل وتقلدوا مراكز مهمة فى الحياة العامة وفى البلاط. ويبدو أن الإجراءات التعسفية تلك لم تدخل فـــى حيز التطبيق بشكل متساو فى المناطق المختلفة التابعة للموحـــدين ؛ مما أرغم الفيلسوف اليهودى القرطبى الشهير يوسف بـــن ميمـــون، على اعتناق الدين الإسلامى مثلاً، وفضل أن يهاجر إلى مدينة فاس، وكانت إحدى المدن المهمة فى بلاد الموحـــدين. وتكـــاد المـــصادر العربية تخلو من معلومات حول هذه الأحداث، بينما تناولتها المصادر اليهودية فى صيغ أدبية (شعرية فى الغالب) يصعب التعامـــل معهـــا على أنها مصادر تاريخية، ولكن ثمة حدث موثق يتمثل فى أفـــواج المهاجرين الذين نزحوا من الأندلس متدفقين على المناطق الإسلامية، بسبب تلك الأحداث. وقد كان أحد العاملين اليهود فى بـــلاط الملـــك ألفونسو السادس ملك قشتالة، ويدعى يهوذا بن عزرا (وكان ينتمـــى إلى أسرة غرناطية سبق أن ألمحنا إليها) يستقبل فى قلعته، قلعة رباح أو كلاترابا **Calatrava** اليهود الفارين من الأندلس.

تلك هي الحقبة التي بدأ فيها الأطباء ورجال الإدارة اليهود يكتسبون أهمية في بلاط قشتالة. فقد كان ألفونسو السادس يشجع المهاجرين من اليهود الوافدين من الأندلس ويرحب بهم، واستعان بعدد منهم بعد عام من الغزو في مهام إلى بلاط كل من إشبيلية وفالنسيا، لتحصيل الضرائب المستحقة عليهما. ومن هنا أخذ وضع اليهود يتنامى في إدارة شئون البلاد؛ مما أثار حفيظة البابا غريغوريو السابع Gregorio VII فدعا إلى عدم تعيين اليهود في وظائف تقتضي التحكم في مسيحيين. ولعل من المناصب التي اكتسبت أهمية خاصة ذلك المنصب الذي شغله ر. يوسف هاناس فروزييل R. Yosef Hanasi Ferruziel ، المعروف بـ ثديلو Cidiello، بوصفه طبيبًا شخصيا للملك. وهنا نركز ثانية على مدى الأهمية السياسية الكبيرة التي تميز بها منصب الطبيب في البلاط إبان العصور الوسطى. كذلك شغل ابن أخيه ر. شلومو فيروزييل R. Selomo Ferruziedl – وكان قد سبق أن أوفد في مهمة دبلوماسية من قشتالة إلى أراغون Aragón – منصبًا مماثلاً.

ضم بلاط ملوك قشتالة، في عهود ألفونسو السادس، وألفونسو السابع، وألفونسو الثامن، عددًا من اليهود اعتبارًا من أواخر القرن الحادي عشر، وطوال القرن الثاني عشر. واكتسبت وظائف المشرفين، وأمناء الصندوق، والقائمين على بيت المال والشئون

المالية الملكية، وضعًا خاصًا وكان نظام الاستثمار المالى، والتقنيات الخاصة بالأنظمة الإدارية المتقدمة عملاً واحدًا من الناحية العملية فى ذلك الحين. ونأمل أن تفصح دراسات جديـدة عـن كيفيـة انتـشار الإجراءات الإدارية الإسلامية في بقية البلدان الأوروبية عبـر شـبه الجزيرة، وعندئذ سوف يتسنى لنا الوقوف على مدى إسهام المشرفين اليهود فى قشتالة فى تحقيق هذا التقدم.

لا ينبغى أن يدفعنا المركز الذى حظى به رجال البلاط هؤلاء – التقدير الذى كان يتمتع به الأطباء، والمترجمون، ورجال العلـم– أن يدفعنا إلى استقراء خاطئ لأوضاع الأقلية اليهودية المعاصرة فى ذلك الوقت، فكما حدث مع المدجنين **Mudéjares**، وعندما تم إقـرار الامتيازات التى تمتع بها القشتاليون، والفرنجة المقيمون فى طليطلة ، بدأت مرحلة تدهور أوضاع اليهود.

كان أمن اليهود مرهونًا كلية بما يراه الملك، وبمدى ما يتمتـع به ضباطه من نفوذ وتأثير، وكان وضع هؤلاء الضباط مرهونًا أيضًا بمشيئة الملك. السواد الأعظم من يهود قـشتالة كـان عبـارة عـن جماعات صغيرة من الحرفيين الحضريين ومن سكان متواضـعين ، يعيشون فى ظروف بدائية يحاصرها الفقر. ولمـا مـات ألفونـسو السادس عام١١٠٩، اندلعت حركة تمرد شاملة فجرها المسيحيون فى

طليطلة شملت البلدان المحيطة بمدينة بورغوس **Burgos** ومملكة ليون قاطبة، كان من أهم نتائجها تخريب ممتلكات الملك، كما تعرضت فيها الأحياء والمناطق اليهودية لعمليات السلب والنهب. ومرت سنوات طويلة حتى انتهى الملك ألفونسو السابع إلى اتفاق مع سكان المناطق التى شهدت تلك الاضطرابات، أصدر بمقتضاه مرسومًا بإسقاط جميع الغرامات وإلغاء التعويضات المستحقة لمن قُتل من اليهود. وبذلك تكون الأحياء اليهودية هى التى دفعت ثمن التمرد على السلطة الملكية.

بدت أوضح مظاهر تمييز البارزين من اليهود فى الوقت نفسه الذى فرضت فيه تشريعات متشددة ضد الأقلية اليهودية فى عهد الملك ألفونسو العاشر، الذى ازدهرت فى عهده، وتحت رعايته، ما أطلق عليها اسم مدرسة المترجمين فى طليطلة. فقد حظى العلماء اليهود فى عهده بتقدير لا مثيل له بالنسبة لحكام عصره، كما ألحق عددًا من خدمه ليشغلوا المناصب فى السياسة والإدارة المالية. كل ما ذكر يتناقض مع تشريعاته تجاه اليهود والمسلمين. ومما لاشك فيه أن التمرد الذى تزعمه المدجنون فى وادى نهر الوادى الكبير كان له دور فى تلك التشريعات . إلا أننا لا نعرف عن هذا التمرد إلا النزر اليسير . لقد بدا نفوذ الكنيسة واضحًا فى تلك التشريعات الجديدة، كما تبين أيضًا أنها تنطوى على محاولة لتخفيض الامتيازات المخولة

لليهود. وترتب على ذلك إرغام اليهود على دفع ضريبة العشور المستحقة على أراضيهم للكنيسة، كما فرض عليهم ارتداء ملابس خاصة، ووضع علامة مميزة عليها، وعمومًا فقد قلص ألفونسو العاشر حقوق كل من اليهود والمسلمين المدنية، وخاصة خلال الفترة الأخيرة من حكمه.

لم تختلف علاقة الأساقفة وكبار النبلاء باليهود عن علاقة الملك بهم بشكل عام. فقد كان لخوان، أسقف بورغوس، ومستشار فرناندو الثالث، علاقة بطبيب ورجال مال من اليهود، وجعل رئيس أساقفة جمعية رهبان سانتياغو **Santiago** إدارة الأراضي الخاصة بالجمعية فى أيد يهودية.

هناك نشاط مهنى آخر تفوق فيه اليهود، وهو المتعلق بأعمال الترجمة (الترجمان، واشتقت منها أيضًا كلمة **dragoman** بالإنجليزية) فقد قاموا فى مناسبات عديدة بدور سياسى مهم، عند صياغة الاتفاقيات ومعاهدات الاستسلام(*). وهناك شخص يهودى من بلدة رونده **Ronda**، قام بدور المترجم من العربية أثناء عملية التفاوض التى انتهت باستسلام المدينة عام ١٤٨٥. وكان لدى آخر

(*) للتعرف على دور اليهود فى أعمال الترجمة وعقد الصفقات بين الممالك الإسلامية والممالك المسيحية انظر كتاب "بين الإسلام والغرب" ترجمة ممدوح البستاوى، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥ . (المراجع)

سلاطين غرناطة أبى عبد الله مترجمان يهوديان (إلى الإسبانية) وهما إسحاق بردونييل Ysaque Perdoniel ، وصهره يهوذا Yuda. كان بلاط ملك قشتالة المتنقل دائمًا حافلاً برجال مال ومفكرين من اليهود. وتعود رجال البلاط اليهودى على أسلوب حياة الفرسان، كما ارتبطوا بصداقات مع العاملين فى دوائر البلاد، وأيضًا شاركوا فى النزاعات التى لم تتوقف من جانب المتطلعين إلى إنعامات ملكية. وتميز طابع علاقة أقطاب اليهود بإخوانهم فى الدين بالطابع نفسه الذى اتسمت به علاقات السادة الإقطاعيين بمن دونهم من الشعب. مما أثار كثيرًا من الأحقاد والمنازعات والانقسامات الداخلية فى الأحياء اليهودية فى كل من قشتالة وأراغون.

أراغون Aragón

كان اليهود فى أراغون أقل عددًا منهم فى قشتالة، على خلاف المدجنين ، وفى مناطق أراغون كان يتم ضم عدد من الجمعيات اليهودية كلما كان المسيحيون يستولون على المناطق الإسلامية . أهم تلك الجمعيات كانت فى توديلا Tudela وسرقسطة (حيث حصل اليهود على امتيازات بهدف تشجيعهم على الإقامة هناك) وفى قلعة أيوب Calatayud وضمت هذه المدن عددًا من الأحياء اليهودية التى ازدهرت إبان العصر الإسلامى. أضف إلى هذه المدن مدينتى لارده Lérida، وبرشلونة ، وكلاهما كانت تحت حماية التاج.

تمتع يهود أراغون بأزهى مراحل تاريخهم فى عهد خايمى الأول Jaim I الذى جعل من القرن الثالث عشر عصرًا ذهبيا لليهود فى ظل التاج الأراغونى. فلما استولى هذا الملك على مدينة فالنسيا عام ١٢٣٨ (بعد أن تمكن المسلمون من استردادها بعد وفاة السيد El Cid) كان بين أحيائها حيًّا يهوديا مزدحمًا بالسكان. غادر عدد من هؤلاء السكان قاصدًا مملكة غرناطة أو الشمال الإفريقى، ولكن بقى قطاع كبير منهم فى المدينة. حاول خايمى الأول اجتذاب يهود آخرين إلى المملكة، بل وسعى إلى اجتذاب اليهود المقيمين فى شمال إفريقيا، لكى يشغلوا المناطق التى تركها المسلمون لدى مغادرتهم مملكة فالنسيا . وأدى ذلك إلى توافد أفواج اليهود فى حماية التاج، وذلك بموجب العطايا ومنح الأراضى والإعفاءات والوظائف التى خصصها الملك لليهود القادمين، بهدف إعادة تعمير المنطقة. كذلك اتخذ خايمى الأول إجراءات تكفل لليهود حرية العمل بالتجارة، كما أطلق لهم حرية التنقل فى جميع أنحاء المملكة ومن مكان إلى آخر، دون تحمل أى أعباء أو مكوس. ثم صرح لهم بدرو الثالث عام ١٢٨٠ بممارسة الأنشطة التجارية مع المسيحيين والمسلمين . ومارس يهود أراغون وفالنسيا التجارة مع البرتغال عبر الطرق البحرية وعلى متن السفن البرتغالية، كما اشتغلوا بالتجارة أيضًا مع دول شمال إفريقيا، وخاصة تجار الأحياء اليهودية فى مدن ساغونتو

Sagunto، وشاطبة Játiva ، وكان لهؤلاء التجار معاملات تجارية مع الجزائر وتونس عن طريق وسطاء من يهود مايوركا. وامتدت حركة التجار اليهود فى فالنسيا – إلى مدن تلمسان Tremececn وبجاية Bujía فى الجزائر، وغالبًا ما تمت صفقات التجار عن طريق العلاقات الشخصية والعائلية بمعرفة يهود أندلسيين سبق أن أقاموا فى تلك المناطق . كذلك أجرى يهود الأندلس علاقات تجارية مع تجار من جنوة مقيمين فى مملكة غرناطة، وكان هؤلاء التجار يقومون بعمليات تجارية مع شمال إفريقيا وأراغون أيضًا، مما ساعدهم أيضًا على مد جسور العلاقات الثقافية. وفى أوائل القرن الرابع عشرسافر أحد مشاهير رجال الدين الأندلسيين (من مالقة بالتحديد) ويدعى جاييم بن هاشيملى بزيارة إلى الجزائر لإجراء مشاورات مع الحاخام الشهير شيمون ب. سماح، حاخام مدينة تلمسان Tremecén، وهو بدوره من أصل مايورقى، وكان لاستشاراته القانونية وزنها فى منطقة البحر المتوسط كلها.

كانت مهنة الطب، ومجال الإدارة، على رأس النشاط المهنى لدى يهود أراغون، شأنهم فى ذلك شأن يهود قشتالة . وقد شغل هؤلاء فى مجال الإدارة وظائف خاصة بتقدير الضرائب وتحصيلها. كذلك تقلدوا المناصب التى تتطلب الإلمام باللغة العربية، وبخاصة وظيفة "الترجمان"، أى وظائف المترجمين والسفراء لدى المناطق

الإسلامية، والقائمين بالتفاوض للوصول إلى اتفاقيات ومعاهدات تجارية أو سياسية مع المناطق الإسلامية المجاورة، إما مع مملكة غرناطة وإما مع منطقة الساحل الجنوبى للبحر المتوسط. وكان لخايمى الأول Jaime I نفسه المترجم باهييل Bahiel القسطنطينى، الذى قام بدور المترجم والوسيط فى مسيرة الاستيلاء على ميورقه عام ١٢٢٩، وفى عملية الاستيلاء على فالنسيا عام ١٢٣٨م، كما أجرى مفاوضات مع حكام مدينة شاطبة حول استسلامها أثناء الحصار الذى فرضه الأراغونيون عليها. كذلك تولى أشتروك بونسنيور Astruc Bonsenyor هو وأولاده بون دافيد Bondavid ويافوده Yafuda مهمة التفاوض بشأن استسلام مدينة إيلشىElche، ومدينة مرسية أما الملك بدور الثالث، فقد كان فى بلاطه يهودى من مدينة فالنسيا يدعى صمويل بن مناسى Abenmanasse وهو الذى رافق الملك فى حملاته على تونس وصقلية. هذا وقد أوفد ابن دافيد إلى مصر عام ١٢٨٩ سفيرًا لملك أراغون ألفونسو[*] Alfonso El Liberal.

هناك يهود أيضًا اشتغلوا بشئون المال والإدارة العامة، كذلك

(*) العلاقات بين إسبانيا المسيحية ومصر فى عصورها المختلفة من الموضوعات المهمة التى ينبغى القيام بدراستها. هناك دراسات بالفعل عن علاقة مصر المملوكية بمملكة أراغون قبيل سقوط غرناطة الإسلامية. (المراجع)

تولى موظفون يهود شئون جمعيات المسلمين فى تلك المناطق من المملكة، والتى لم يكن سكانها يتحدثون سوى اللغة العربية . وفى عام ١٢٨٣ حدثت انعطافة سياسية من جانب التاج الأراغونى إزاء اليهود، وصلت إلى إقامة حواجز شديدة بين التجمعات، وبصفة خاصة ما تقرر بشأن منع اليهود من تولى مهام الوظائف العامة.

وأخيرًا هناك ظاهرة تجدر الإشارة إليها وإن كانت هامشية ، فثمة معلومات موثقة تتحدث عن إقبال تلقائى من قبل اليهود على اعتناق الإسلام فى غضون القرن الثالث عشر وفى مطلع القرن الرابع عشر فى أنحاء مملكة أراغون، ووصل الأمر إلى حد المشكلة لدى السلطات المسيحية فى المملكة. ومن المحتمل أن يكون هؤلاء من اليهود الذين قدموا من الأندلس ممن كانوا قد بقوا فى المناطق المسيحية أو ممن هاجروا إلى هناك نتيجة للامتيازات والعطايا التى منحها خايمى الأول، ثم آثروا التكيف مع طوائف المدجنين نظرًا لتشبعهم بالثقافة العربية الإسلامية. وهذه الظاهرة مشابهة لما سبق أن ألمحنا إليه عند حديثنا عن المستعربين الجدد.

تبين هذه الأحداث مدى تغير نسبة العناصر المختلفة التى تدخل فى تكوين هوية الفرد أو الجماعة من عناصر دينية وثقافية ولغوية، وذلك وفقًا للظروف التى تحيط به عندما يكون فى وضع حدودى دائم.

لقد أتاحت ظروف النظام والمجتمع القشتالى الخاصة الفرصة أمام اليهود لكى يتولوا بعض المناصب المهمة خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر، بينما كان ذلك مرفوضًا فى مملكة أراغون المجاورة اعتبارًا من أواخر القرن الثالث عشر. ففى قشتالة حدث امتزاج بين تقاليد البلاط لدى أمراء الأندلس، وطبيعة النظام الزراعى الإقطاعى، وبين مبادئ الورع المسيحية، ومن هنا كان التشابك والتناقض فى كثير من الأوضاع التى نعرض لها. ولكن، وعلى أية حال، وهذا ما سوف نستقرئه فى الفصل التالى، فإن المسيحية أصبحت هى الديانة السائدة خلال القرن الثالث عشر، وتأكد رسوخها أمام الإسلام واليهودية، وقد تم استبعاد هاتين الديانتين بكل الوسائل بدءًا من التشريعات وحتى الصدام المسلح. وباتساع محيط العالم المسيحى اتسعت آفاقه، واتسع مجال اتصاله بالإسلام، وهو ما تجلى فى عدة مجالات، منها ترجمة مراجع علمية وفلسفية، قام اليهود بدور كبير فيها. وخلال القرن الثالث عشر قام ممثلون للكنيسة بتنظيم حلقات جدل دينى مع ممثلين للطوائف اليهودية، فرضوا عليهم أثناءها حضور الخطب والمواعظ الدينية. وقد أدت الأوامر التى صدرت إلى القيام بحملات لتنصير أعداد كبيرة من اليهود والمسلمين، مما دعا إلى إنشاء أقسام لدراسة اللغتين العربية والعبرية وتعليمهما. وسوف تأخذ هذه المسيرة فى الانعطاف نحو

الأصولية، نتيجة لفشل عمليات التنصير، إلى أن بلغت الأزمة ذروتها فى القرن الرابع عشر، كما تمثلت فى الحملات التبشيرية التى تزعمها بيثنتى فيرير Vicente Ferrer، والتى أدت إلى تفجر اضطرابات خطيرة، تعرضت فيها الأحياء اليهودية للسلب والنهب، كما ارتكبت فيها المذابح. وهنا اضطر عدد كبير من اليهود إلى التنصر.

(٣)

المدجنون

ظهر المدجنون فى العصور الوسطى المتقدمة، وقد اختلطوا بالسكان المسيحيين المعرَّبين بصورة يصعب فيها التمييز بينهم. والمدجنون هم المسلمون الذين بقوا فى المناطق المسيحية التى استولى المسيحيون عليها، أو ممن وفدوا إلى مناطق مسيحية واستقروا بها إما باعتبارهم أسرى حرب، وإما بصفتهم مهاجرين وفدوا من جنوب شبه الجزيرة، بسبب الاضطرابات السياسية العميقة هناك، أو هربًا من ويلات الحروب الأهلية، أو نتيجة للظروف الاقتصادية القاسية. أقام المدجنون فى المناطق المسيحية فى نطاق تجمعات مختلفة وفق تنظيم خاص بهم، تحكمهم سلطاتهم وقانونهم الخاص. ومر المدجنون على مر العصور بظروف تعرضوا فيها لعمليات اضطهاد متصاعدة استهدفت أحد أمرين إما الاندماج وإما الرحيل.

والمدجنون هم أول نواة مهمة من السكان المقيمين فى مناطق لا تحكمها سلطة سياسية مسلمة، وهذا ما يضفى اهتمامًا خاصا على

أساليب تنظيمهم، وطرق معيشتهم داخل التجمعات الخاصة بهم. ولقد استخدمنا لفظ " الجماعة "aljama للإشارة إلى الفريقين. والجماعة هى المجلس المشكل من كبار طائفة المدجنين (كما هو الحال بالنسبة لليهود) باعتبارها المؤسسة المكلفة بإدارة شئون الجماعة، والمسئولة عن تنفيذ القانون الإسلامى، إضافة إلى الاضطلاع بمهمة الاتصال بالسلطات المسيحية. وكانت تلك "الجماعات" مجرد رمز لبقاء الإسلام فى المناطق المسيحية، وقامت بأداء بعض المهام التى كانت تمارسها السلطة السياسية فى المناطق الإسلامية، مثال ذلك المحافظة على العادات والقوانين، والسهر فى سبيل الحفاظ على العقيدة، والالتزام بتنفيذ التعاليم الدينية، وكذلك العمل على نقل المعارف. ويطلق لفظ "جماعة" أيضًا على الطائفة بأكملها، وغالبًا ما ورد لفظ "جماعة" فى المراجع والوثائق مثلاً ("جماعة" اليهود، أو "جماعة" المسلمين) على أنه مرادف لكلمة حى أو حارة، كحارة اليهود، أو حى المسلمين.

ذكرنا أن المدجنين هم أول جماعة مهمة وباستثناء صقلية، هم الطائفة الوحيدة حتى العصور الحديثة التى عاشت فى منطقة غير إسلامية. لذلك اصطدمت بمشاكل تمس وضعها الإسلامى، الأمر الذى أدى إلى إصدار مجموعة من الفتاوى والرؤى القانونية، امتد العمل ببعضها بناءً على طلب بعض الجماعات. على سبيل

المثال : هل يجوز أن يظل المرء مسلمًا وهو يعيش فى بلاد الكفار، أى دار الحرب؟ لقد عادت مثل تلك الفتاوى تحظى باهتمام غير مألوف تجاه ظاهرة الإسلام الأوروبى الجديد الذى يُرى فى المدجنين مثلاً.

قسَّم الفقيه ابن ربيع، وهو أحد فقهاء القرن الرابع عشر، المدجنين إلى ثلاث فئات : أقلية مبعثرة، استقرت فى بلد مسيحى، وفئة تركزت رغم أقليتها، فى تجمعات داخل أحياء خاصة بها، فى معزل عن الكفار، أما الفئة الثالثة فهى أغلبية أقامت فى بلد يسيطر المسيحيون على حصونه للتحكم عسكريا فى البلاد.. ويرى الفقيه المذكور أن أسوأ هذه الفئات الثلاث حالاً هى الفئة الأولى (وأنه كان يتعين على من يعيش فى هذه الظروف أن يهاجر مهما كلفه الأمر)، وأن أفضلها حالاً هى الفئة الثالثة. وسوف يتبين لنا وجود الفئات الثلاث فى مختلف المناطق التى عاش فيها المدجنون، كما سيتضح أن خيوط الهجرة لم تنقطع طوال تلك الفترة، وخاصة فى أواخر العصور الوسطى.

خلت وثائق العصور الوسطى من كلمة مدجن **Mudéjar**، حتّى منتصف القرن الخامس عشر، فكلمة **Mudéjar** بالإسبانية تقابلها **Mudeixar** بلغة قطالونية أو **Mudéjar**، وهى مشتقة من الكلمة

العربية مُدجَّن، أى "الخاضع"، وهذا هو المعنى الوارد فى المصادر العربية. وأطلق اسم مورو Moro على المسلم قبل حلول القرن الخامس عشر، وMoro بالإسبانية، و Mauri باللاتينية، وأثناء العصور الوسطى وما بعدها كانت كلمة Sarrahin، أو Sarrins أو Sarracenos تعادل كلمة مسلمين وذلك فى المصادر القطالونية، وعرفوا فى مصادر أراغون Aragon، على أنهم Moro De Paz ، أى مسلمو السلام، وذلك للتمييز بينهم وبين من لم يندمج منهم فى المجتمع المسيحى بموجب اتفاقات أبرمت باعتبارهم أسرى حرب أو عبيد.

من الصعب الإلمام بمجمل قضية المدجنين. فهم لم يتطوروا بمرور الزمن فحسب، بل إنهم اكتسبوا خصائص متنوعة للغاية طبقًا لظروف الممالك التى عاشوا فيها، بسبب اختلاف ظروف العمليات العسكرية، وخاصة بسبب التباين التشريعى فى العصور الوسطى، أو على ضوء خصوصية مختلف المزايا المحلية، أو نتيجة للامتيازات التى تمنحها مختلف المدن. إن الاختلافات كبيرة أيضًا فى مختلف المناطق، فى نواح عدة تبدأ من الاختلافات الديمغرافية، وحتى مستوى الإلمام بمستوى الثقافة العربية الإسلامية لدى المدجنين فى المناطق المختلفة. فعلى سبيل المثال لم تتجاوز نسبة المدجنين فى قشتالة خمسة بالمائة من إجمالى السكان فى نهاية العصور الوسطى،

وكانت فى أراغون ٢٠ بالمائة. أيضًا أخذ استخدام اللغة العربية يتراجع فى كل من قشتالة وأراغون، إذ اقتصر الاستخدام فى البداية على الجوانب القانونية والدينية، ثم انحصر فى نطاق محدود للغاية، حتى حلت اللغة الألخميادو أو الأعجمية Aljamia (كتابة اللغة الإسبانية بحروف عربية) فيما بعد محل اللغة العربية، وفى الوقت نفسه ظل استخدام العربية قائمًا فى غرناطة وفالنسيا، تحريريا وشفويا، إلى أن طرد الموريسكيون خلال الفترة من عام ١٦١٠ حتى عام ١٦١٤.

كان وضع المدجنين يأخذ فى التدهور فى أنحاء البلاد جميعها، وبلغ التدهور ذروته على أثر صدور مراسيم ملكية تقضى بالتحول الإجبارى إلى المسيحية. وبالتالى أصبح المدجنون مسيحيين رسميا وإن كان قطاع كبير منهم كان يتظاهر بهذا التحول، وأطلق عليهم عندئذ اسم الموريسكيين أى أن الاختلاف بين المدجنين والموريسكيين إنما هو اختلاف قانونى سنه المسيحيون، كان له تأثير جوهرى على مدى تقدير الجهات الرسمية لديانة الموريسكيين. وقد اختلفت تواريخ ذلك التحول الإجبارى بين مملكة وأخرى : فى المناطق التابعة لتاج قشتالة عام ١٥٢٠، وفى نابارا Navarra عام ١٥١٢، وفى كل من أراغون وفالنسيا وقطالونيا عام ١٥٢٦.

جرت العادة عمومًا، على تقسيم دراسة أوضاع المدجنين إلى أربعة أقسام : قشتاليين، وأراغونيين، وفالنسيين، وغرناطيين. وسوف أتناولهم هنا فى إطار كتلتين: كتلة المناطق التابعة لتاج قشتالة، وكتلة المناطق الخاضعة لتاج أراغون.

مملكة قشتالة :

كان المدجنون فى قشتالة مجرد أقلية محدودة ومتفرقة، ومهمشة اجتماعيا، وفقيرة ثقافيا (نتيجة لنزوح النخبة وطبقة المثقفين منهم إلى المناطق الإسلامية فى الجنوب)، كما كانت أصولهم غير مؤكدة، لدرجة أن بعض المؤرخين يشككون فى إسهامهم فى نقل الثقافة الأندلسية. ويرجع انخفاض عدد المدجنين فى قشتالة جزئيا، إلى ظروف العمليات العسكرية القشتالية، وما كان لها من دور فى إصدار التشريعات الخاصة بهم. واقترن صدور تشريعات قشتالة بشأن المدجنين مع التشريعات الخاصة باليهود إلى حد كبير، وتطورتا بشكل متواز. أما المعلومات المتوفرة عن كلتا الطائفتين، فهى نادرة ومبعثرة للغاية طوال فترة ما قبل الاستيلاء على طليطلة عام ١٠٨٥. وإنه من الصعوبة بمكان أن نعد صورة كاملة للحياة الخاصة بكلتا الطائفتين حتى نهاية العصور الوسطى، حيث تيسرت الوثائق بوفرة. ولعل أكثر المعلومات وفرة تلك التى استخلصت من التشريعات،

سواء كانت صادرة عن السلطات الكنسية أو البلاط أو السلطات المحلية. ولكن هذه الوثائق وفرت معلومات نظرية لا تتفق دائمًا مع ما توفر لنا من معلومات استخلصت من مصادر أخرى، حول ممارساتهم وظروف حياتهم اليومية. ولما كانت التشريعات مشتركة بصورة عامة بالنسبة للمدجنين واليهود، فلا ينبغى أن نتجاهل الاختلافات الكبيرة بين كلتا الأقليتين.

لاشك فى أن عام ١٠٨٥م يعتبر عامًا محوريا. فقد ترتب على الاستيلاء على مملكة طليطلة ضم مناطق ذات كثافة سكانية عالية سواء من المسلمين أو اليهود أو المستعربين إلى الأراضى الإسبانية لأول مرة. وكان لهذا الحدث أهميته سواء على الوضع السكانى لهذه الأقليات أو على التشريعات التى صدرت بشأنها.

نصت وثيقة استسلام طليطلة على ضمان حرية انتقال المسلمين الراغبين فى مغادرة المدينة، كما نصت على حماية أرواح من يرغب فى البقاء وأموالهم وممتلكاتهم، بما فى ذلك ملكية المساجد. ونصت فقط على أن يتم تسليم الأماكن الحصينة للمسيحيين. إلا أن هذه الشروط لم تنفذ من الناحية العملية، ففى أعقاب الغزوة المسيحية تم تعيين راهب من دير كلونى Cluny كبيرًا لأساقفة طليطلة. وكان هذا القس ممن شاركوا فى مجمع كليرمونت

Clermont الدينى، حيث نذر بأن يشارك فى الحروب الصليبية فى الأراضى المقدسة، ثم أعفاه البابا من الوفاء بنذره لكى يشترك فى الحرب ضد المسلمين فى شبه الجزيرة الإيبيرية. ولما كان هذا الأسقف من المقربين إلى الملكة تحين فرصة غياب الملك، وقام بمصادرة المسجد الكبير فى طليطلة عام ١١٠٢، وحوله إلى كاتدرائية. كان هذا العام ١١٠٢ -إضافة إلى الموافقة على امتيازات القشتاليين والفرنسيين عام ١١١٨ - بادرة انتكاسة للائحة القانونية الخاصة بالمدجنين القتشاليين. فقد أرغم المسلمون على مغادرة المدينة تدريجيا على مدى جيلين؛ فاتجه كثير منهم إلى مناطق شمال قشتالة. واعتنق الآخرون المسيحية، ثم اندمجوا مع سكان طليطلة من المستعربين، والمعربين-فى الأعماق، حيث نما بينهم تآلف ثقافى.

سوف أحاول، فيما يلى ، الإجابة عن الأسئلة التالية حول المدجنين القشتاليين: من أين جاءوا ؟ وكم كان عددهم؟ وأين كانوا يعيشون؟ لقد أشرت فيما سبق ، فى معرض الحديث عن المستعربين، إلى بعض الآراء التى تدور حول أصول كلتا الأقليتين (اللتين تشكلان جزءًا من السكان المسلمين الذين مكثوا فى أماكنهم على الرغم من تغيير الحدود)، وربما لا تلقى هذه الآراء إجماعًا على إقرارها أو قبولها. يرى لاديرو كيسادا **Ladero Quesada** وهو من كبار الباحثين المعنيين بالمدجنين فى مملكة قشتالة، أنه من غير المعقول أن يكون

المدجنون بقايا من المسلمين الذين ظلوا فى مناطقهم بعد الغزو. ولكنه يؤكد عكس ذلك، ويقول إنهم من هجرات حديثة نسبيا، ومن المستحيل أن ترجع إلى القرن الثالث عشر، وأن السواد الأعظم منهم انحدر من موجات الهجرة، من سكان مملكة طليطلة القديمة.

ويذهب مؤرخون آخرون إلى ما هو أبعد من ذلك، مثل مولينات **Molinat**، حيث يؤكدون أنه لم يبق أحد من المسلمين فى مدينة طليطلة بعد الاستيلاء عليها، وأن من أعاد تعميرها بعد ذلك هم المدجنون الذين جاءوا من منطقة وادى نهر الوادى الكبير على أثر الغزوات التى شهدها القرن الثالث عشر. إذن، مازال الأمر يحتاج إلى دراسات كثيرة حتى يمكن الاستقرار على رأى جدير بالتصديق.

أما فى قشتالة – كما سوف يتبين لنا – على عكس ما هو عليه الحال فى أراغون، فقد كانت الأحياء الإسلامية تتركز، بصور تكاد تكون عامة، فى النقاط العمرانية المهمة، حيث كان يسهل على أى مهنى مدجن أن يستوطن، بل كان يحظى بموافقة المجالس المحلية، ولعل أكثر الحالات توثيقًا هو ما يتعلق بمدينة أبيلا **Ávila** التى ضمت بين سكانها أهم تجمع سكانى من المسلمين فى مناطق شمالى قشتالة، إلا أن وجود المدجنين هناك، لم يكن موثقًا حتى القرن الثانى عشر، بعد مرور قرن من استيلاء المسيحيين على المدينة. وتكاد تكون هذه المدينة نموذجًا بالنسبة لموضوعنا . فى أواخر العصور الوسطى

كانت تضم حيا يهوديا يستوعب نحو ألفى يهودى، ونحو ألف وثلاثمائة مدجن، بينما لا يكاد عدد السكان المسيحيين يتجاوز ثلاثة آلاف نسمة.

أما بالنسبة للعدد والتوزيع الجغرافى، سواء كان ذلك بالنسبة للمسلمين أو اليهود، فيمكن الاستعانة بكشوف توزيع الضرائب الإضافية، والتى كان يتعين على كلتا الجاليتين أو الطائفتين الوفاء بتسديدها. تلك الضرائب كانت: الضريبة السنوية، وضريبة المنفعة ونصف المنفعة. أما الضريبة السنوية، أو الأساسية، فهى عبارة عن مبلغ سنوى يلتزم كل مسلم أو يهودى بتسديده تعبيرًا عن الاعتراف بالسيادة الملكية، وبالحماية الخاصة التى يكفلها لهم الملك. أما ضريبة المنفعة ونصف المنفعة، فكان توزيعها كسابقتها طبقًا للوائح والإجراءات الضريبية، وكانت عبارة عن مبالغ غير عادية. وانتهى الأمر بها إلى تحويلها إلى ضريبة سنوية أيضًا. ومن هذا يتضح أن المسلمين واليهود كانوا يسددون الضرائب الأخرى التى كان يدفعها أى ممول ضرائبى قشتالى، بما فى ذلك ضريبة العشور التى كانت تسدد للكنيسة.

ويتبين من التقسيم الضرائبى خلال الفترة ١٢٩٣-١٢٩٤ أن المدجنين تحملوا مبالغ كبيرة سددت للأبرشيات فى كل من :

بورغـــوس Burgos وفالنـــسـيا Palencia وأبـــيلا Avila وســـيغوبيا Segovia، وهذا ما يعكس وجود عدد كبير من الأحياء التـــى يقطنهـــا المسلمون.

فى عهد الملك إنريكى Enrique الثالث، ثـم تثبيـت المبــالغ المفروضة على كل حى من أحياء المسلمين بالنسبة لضريبة الـــرءوس، وربما تكون هذه هى آخر مرة. ولكن أهم الوثائق حقيقـــة ترجع إلى ما بعد تلك الفترة، وهى خاصة بضريبة "المنفعة ونصف المنفعة" وقد قام لاديرو كيسادا Ladero بمتابعة هذه الضريبة عن أعوام ١٤٦٢-١٤٦٤، ١٥٠١، وكذلك الضرائب الخاصـــة بعـــام ١٤٩٥، ١٥٠١. وطبقًا لتلك الأخيرة، تبين وجود أحياء للمسلمين فـــى أبـــيلا Ávila، وأريبالو Arévalo ، وبلد الوليد Valladolid، وكانت هذه هـــى أكبـــر أحياء المسلمين فى المنطقة، تليهـــا أحيـــاء أخـــرى متوســطة فـــى بورغـــوس، وبـــاركو دى أبـــيلا Barco De Ávila، وبييـــدراهيتا Piedrahita. وأخيرًا كانت هناك أحياء يهودية صغيرة فى كـــاريون Carrion، ومدينة الكامبو Medina Del Campo، وفالنسيا وســاهاغون Sahagon، وسيبولبيده Sepúlveda. وفى المنطقة الشرقية للإقليم، على طول الحدود مع مملكة أراغون، كان الإشغال السكانى مـــن جانـــب المدجنين أقل كثافة، ولكن هناك بعض الأحياء الإســـلامية المهمـــة، أكبرها حى أغريدا Agreda، يتلوه حى أرندا دى دويرو Aranda De

Duero، وأغـــيلار دى ثربيـــرا Aguilar De Cervera، وســـربيره Servera، ومدينة سالم Medina Celi، وبنياراده Peñarada، وســـان اســتيبان دى غوميـــث San eslivan De Gomes، وأركـــوس Arcos ومولينا دى أراغون Molina De Aragon، وسيغوينثا Siguenza.

ويمكن إثراء معلوماتنا عن المدجنين فى هذه المناطق أيـضًا عن طريق الشهادات التى توفرت لدينا حول الموريسكيين فى القــرن السادس عشر ، منها سجل الحالة المدنية الخاص بالمسيحيين الجــدد فى سيغوبيا Segovia، لعام ١٥١٠ (أى بعد مرور ثمانى سنوات على صدور المرسوم الذى يقضى بتحــول المــدجنين بمملكــة قــشتالة الإجبارى إلى المسيحية) وأثناء تلك الفترة ظهرت مشكلة التمييز بين الموريسكيين القدامى، أى المنحدرين من ســلالة مــن تحــول مــن المدجنين المقيمين سلفًا بالمملكة، وبين المدجنين الغرناطيين، الــذين أخــذوا يفدون بأعــداد قليلــة بعد الاســتيلاء على مملكة غرناطة، ثم أخذت أعدادهم فى الزيادة حتى أصبح تدفقهم فــى فــرق كبيــرة اعتبارًا من اندلاع حرب البُشرَّات Alpujarras خــلال الفتــرة مــن ١٥٦٨إلى ١٥٧٠. وأحدث هذا التدفق الغرناطى تحولاً فى الوضــع السكانى السابق، كما تسبب فى تفجر منازعات أخذت تتصاعد بشكل ملحوظ، ويمكن القول هنا إن المشكلة فى ذلك كانت غرناطية أكثــر منها موريسكية. وعلى أية حال، فإن هذا العامل يــدفعنا إلــى عــدم

الاستعانة بمختلف سجلات الحالة المدنية الخاصة بموريسكيي النصف الثانى من القرن السادس عشر، ولا أن نأخذ بأعداد المطرودين، فيما عدا الحالات التى يحكيها الموريسكيون القدامى، والغرناطيون، كل على حدة.

لنستعرض الآن جانبًا من الشروط القانونية التى طوقت كلاً من المدجنين واليهود، فقد سادت بينهما التشريعات القانونية تقريبًا، كما سبق أن ذكرنا. هناك علامة ثابتة وجوهرية ميزت هاتين الطائفتين، تمثلت فى اعتبار كل منهما جسمًا غريبًا فى المجتمع القشتالى الذى تحدثنا عنه، أيضًا كانت التشريعات الخاصة بهما متغيرة، سواء بالنسبة للموقع الجغرافى، أو بالنسبة للزمن؛ فقد تغير عدد لا يحصى من القرارات التى تمسهما، بموجب قوانين محلية، وبناء على قرارات أصدرتها المجالس، وبموجب امتيازات ملكية.

وعمومًا، نستطيع أن نؤكد أن أزهى فترة شهدتها الأقليات تقع من القرن التاسع إلى القرن الحادى عشر؛ ففى تلك الفترة كانت هناك حاجة إلى هذه الأقليات سواء فيما يتعلق بالجانب السكانى أو بجانب العمل. ثم شهدت تدهورًا كبيرًا فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر، ثم تدهورت أحوالها مرة أخرى خلال السنوات الأولى من القرن الخامس عشر، وخاصة الفترة من ١٤٠٨ إلى١٤١٢. أيضًا

كانت أزهى عصور الأقليات فى الأندلس، خلال الفترة من القرن التاسع حتى القرن الحادى عشر، ثم بدأ التدهور مع القرن الثانى عشر. فقد تزامن ظهور التشدد الدينى الذى شهدته المنطقتان، من جراء الإصلاح الكولونى Cluny فى الشمال، والإصلاح الذى طبقه الموحدون فى الجنوب.

لمس المدجنون توازنًا فى وضعهم بصفة عامة فى اتفاقيات الاستسلام ومن خلال التشريعات الملكية، اعتبارًا من عهد ألفونسو العاشر، كما كفل التاج تأمين حياة المسلمين الأحرار، مع احتفاظهم بقوانينهم وتقاليدهم، على ألا يمارسوا شعائرهم الدينية علانية، وألا يهاجموا الديانة المسيحية. ذلك التأمين الملكى لم ينطو بالفعل على مساواة المدجن الحر بالمسيحى فى النواحى القانونية . فقد لاحظنا فى أغلب القوانين واللوائح البلدية أوضاعًا مجحفة لكل من اليهود والمسلمين فيما يتعلق بجرائم العنف الجسدى، سواء كانوا معتدين أو ضحايا، وكذلك فيما يتعلق بإمكانية الإدلاء بالشهادة أمام القضاء.

حظر عليهم ألفونسو الحادى عشر القيام بمهام التحصيل، والإشراف، والتأجير، والتحقيق، فيما يتعلق بالأموال الملكية. وتأكد خلال الدورة البرلمانية ١٣٨٥-١٣٨٩، على ألا يشغل هؤلاء وظائف الضباط أو المشرفين فى حاشية الملك أو مع النبلاء، وامتد

هذا الحظر حتى يناير ١٤٦٥ ليشمل الوظائف العامة كلها. لا شك أن ذلك الحظر الذى شمل كلاً من اليهود والمسلمين، كان يستهدف اليهود فى أول الأمر، لأنهم هم الذين كانوا يتولون الوظائف العمومية المهمة، ومع ذلك ظلوا يمارسونها على الرغم من تلك التعليمات.

وفيما يتعلق بقضايا أخرى، كونت الطوائف الكبيرة من اليهود والمدجنين جماعة aljama ، وسمح للمجموعات الأصغر فى الأماكن المجاورة بالاشتراك فيها. وقد شكلت هذه الجماعة للنظر فى مختلف الشئون المتعلقة بالإدارة الداخلية أو التصريح بممارسة الشعائر الدينية . وكان لتلك الجماعات قضاتهم الذين يضطلعون بحل النزاعات المدنية الداخلية. وكان على رأس كل تنظيم قضائى "شيخ كبير" كما سمى فى عهد ألفونسو العاشر، وسمى فى عهد هنرى الثانى بكبير القضاة. وهناك أمثلة كثيرة لقرارات أصدرها ملوك القرن الخامس عشر بتعيين كبار القضاة.

فرضت قيود معينة على اختصاصات قضاة المدجنين، منها ما هو دائم، ومنها ما هو عرضى، ومن أمثلة الأولى، دخول القضايا الجنائية ضمن اختصاصات القضاة المسيحيين العاديين، وأما القضايا المدنية المختلطة فكان يفصل فيها جزء من المسيحيين وجزء آخر من المسلمين.

من المعروف أن تصريف الشئون الخاصة بالقانون الإسلامى في مدينة بورغوس Burgos مثلاً كانت فى أيدٍ مسيحية، على الأقل منذ عهد سانشو Sancho الرابع، الذى منح امتيازًا فى عام ١٢٩٣ جاء فيه : "تدخل النزاعات التى تقع بين المسلمين المقيمين فى مدينة بورغوس وما فى حوزتها، فى نطاق اختصاصات قاضى هذه المدينة". وفى عام ١٢٩٥ منح فرناندو الرابع مجلس بورغوس الصلاحية لتعيين أربعة قضاة سنويا، يتم اختيارهم من بين سكان المدينة، وذلك للنظر فى النزاعات بين المسيحيين وبين المسلمين واليهود.

ارتكز تطبيق القانون الإسلامى خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر على نصوص وخلاصات شرعية كتبها فقهاء مدجنون بالإسبانية؛ نظرًا لأن السواد الأعظم من بنى جلدتهم فقدوا اللغة العربية، وكان القضاة المسيحيون العاديون فى حاجة إلى معرفة التشريع الإسلامى. وقد وصلت إلى أيدينا بعض هذه المؤلفات، وخاصة التى كُتبت حوالى عام ١٤٦٤ وكتبها فقيه شهير فى جماعة سيغوبيا يدعى عيسى بن جابر : "مختصر السنة، أو مجموعة فى الأوامر والنواهى فى الشرع والسنة" Brevario Cunni o Suma De Principales Mandamientos Y Develamientos De La Ley Y Cuna.

يقول الكاتب فى مقدمة الكتاب إنه وضعه بالإسبانية حتى يمكن استيعاب ما به "لأن المسلمين فى قشتالة، تحت ظروف القهر والإكراه، وثقل الأعباء الضرائبية والإجهاد والعمل، فقدوا ثرواتهم والمدارس العربية"، وإن مؤلفه عبارة عن موجز للوجوه الأساسية "فالكتب الكبيرة من عمل أولئك الذين يمتلكون ما يضمن لهم أمان العيش، وهذا ما لم يتوفر لدى مسلمى قشتالة". ويمكننا أن نقف فى فترة عيسى بن جابر على أصول نوع من الأدب الإسلامى المحلى، كتب الجانب الأكبر منه باللغة الألخميادية، أى بلغة إسبانية كتبت بحروف عربية. ربما أراد هذا الفقيه الشهير أن يؤسس إسلام المدجنين، لكى يجعل من أتباعه عنصرًا يحظى بالقبول لدى مجتمع الأغلبية وسافر إلى سكسونيا، وهناك اشترك مع خوان دى سيغوبيا فى ترجمة القرآن إلى اللغة الإسبانية. ويؤكد عيسى فى مقدمة كتاب مختصر السنة نفسه، والذى أشرنا إليه، أنه قام بالترجمة حتى يتسنى للإسبان جميعهم قراءته والإلمام به وفهمه، ودرء الأفكار الزائفة التى أثيرت حوله.

صورة أخرى من صور الاهتمام الذى أحيته التوجيهات الإسلامية خلال الفترة التى كان يسيطر فيها المسيحيون سياسيا على رعاياهم من المسلمين، هو كتاب السنة والشريعة **Cuna Xara**، وهو عبارة عن ترجمة من العربية إلى لغة قطالونية، تمت فى أواخر القرن الرابع عشر، ويتناول المبادئ القانونية والدينية الإسلامية.

المعلومات المتوفرة لدينا حول التنظيم الداخلي للجماعة قليلة. كان الفقيه أهم شخصياتها، فهو الخبير بالقانون، وهو المكلف بالمهام الدينية والتعليمية . وقد كان الفقهاء هم وحدهم الملمين باللغة العربية بين أفراد الجماعة (فى الغالب). بالاطلاع على وثيقة ترجع إلى أواخر القرن الخامس عشر تبين أنه كان فى أبيلا Ávila ثلاثة فقهاء، كل واحد منهم في مسجده، وقد تناولت هذه الوثيقة مناقشة دارت بينهم وبين جماعات كل من بورغوس، وبلد الوليد. وظهر في بورغوس فى ذلك الحين فقيه يوقع على إحدى الوثائق المحررة باللغة العربية، وخلال الفترة من ١٤٥٩ إلى ١٤٦٠ نشر فقيه مدينة سالم عددًا من المحررات الخاصة بتوزيع المواريث باللغة العربية أيضًا. وفى مدينة مولينا Molina قدم الفقيه يوسى دى فاسيه Yuce De Vacia للمحاكمة أمام محاكم التفتيش بسبب قيامه بنشاط تبشيري، وذلك فى عام ١٤٩٥ . كل هذا يوضح أن الفقهاء كانوا أصحاب كل من السلطة الدينية والأدبية، وفيهم تمثلت القدوة الروحية في الجماعات، وكانوا فى الوقت نفسه القائمين بأعمال الكتبة والموثقين، كما يوضح من جهة أخرى أيضًا أن اللغة العربية كانت مستخدمة، وإن كان على نطاق ضيق، وأن استعمالها اقتصر آنذاك على الجوانب الدينية والقانونية حتى أواخر القرن الخامس عشر.

كان تنظيم الجماعات اليهودية مشابهًا للإسلامية : في المقدمة كان الكهول أو المتقدمون فى السن، ثم المقدم، فالقضاة أو الديانيم

Dayynim، وهذا الأخير يعادل منصب القاضي في المجلس البلــدى ، لا يهم أن يكون ضليعًا فى تعاليم التلمود ولكن يتعين عليه أن يرجــع إلى الحاخامات. وفيما يبــدو أن الملك كان صاحب الحق في تعيــين الحاخامات في جمعيات معينة، وكان الحاخام يتمتع بــسلطات دينيــة وقانونية كبيرة. وكان التشابه بينه وبــين شخــصية الفقيــه المــسلم واضحًا. أما الكبار Viejos فقد كانوا ينتمون إلى عائلات كبيرة، وهم المسئولون عن إدارة شئون الجماعة، والمهام المتعلقــة بالــضرائب، وتسيير شئون القضاء. ولم يكن ثمة اختلاف واضــح بيــنهم وبــين الديانيم اللهم إلا اختلاف واحد، وهو مهم، إذ يتمثل فــى أن الحاخــام كان يصل إلى منصبه بالتعيين، وأما الكبار فكانوا يختــارون علــى ضوء ما يتمتعون به من سمعة طيبة، وتقــديرًا لنســبهم وحــسبهم. أما جمعيات الأقاليم، أو جمعيات المملكة بالكامل فكانت تحت إشراف الحاخام الأكبر، المعين من قبل الملك، فى بعض الأحيان.

وكانت المناطق الإدارية اليهودية، مناطق المــدجنين، تــضم المعابد أو المساجد، والحمامات، والمجازر، والجــبانات إلــخ، كــل فيما يخصه. وعلى خلاف جماعات المــدجنين، كانــت الجمعيــات اليهودية تضم جماعات من المثقفين الــذين يعكفــون علــى دراســة التوراة، ونصوص التلمود، وكانت هذه الجماعات تشترك في مختلف حالات الفكر المتعلقة باليهودية، فى ذلك الحين، وكان التعاون قائمًــا

بينهم وبين الشخصيات البارزة فى مجالات الفلسفة والأدب، وخاصة فى مجال الشعر.

تحمّل كل من المدجنين واليهود، كما ذكرنا، أعباء ضرائبية خاصة، ومع ذلك لم يعفوا من الضرائب الأخرى العامة المفروضة على جميع السكان فى المملكة. أضف إلى ذلك أعباء استثنائية أضيفت اعتبارًا من عام ١٤٨٢، والتى أصابت الطائفتين المدجنين واليهود، باختناق حقيقى. بالنسبة للضرائب الأولى كانت هناك لجنة مكلفة بالتقدير والتحصيل، يختار الملك أعضاءها من بين كبار المسلمين، بالاشتراك مع الفقهاء، وبالتالى كان هؤلاء هم القيادات المرئية بالنسبة للطوائف. ومع ذلك، لم يكن لأحد من هؤلاء مهمة فى توزيع جزية أو إتاوة أو ضريبة بدون إذن من الملك، حتى لو كانت هناك نفقات مطلوبة للإنفاق على الشئون الداخلية للطائفة أو الجمعية. ولقد نص القانون الصادر عام ١٤١٢ على هذا الحظر، وظل العمل ساريًا به طوال القرن الخامس عشر، وتضمن هذا النظام أيضًا عددًا آخر من القيود والمحظورات، على غرار تلك القيود الملكية المعمول بها فى قشتالة، ومنها منع اليهود والمسلمين من حمل السلاح. ولعل الجديد والمهم فى ذلك القانون هو بدون شك، ذلك الحظر الذى يقضى بعدم مغادرة المملكة، أو تغيير محل الإقامة داخلها، ويعرض من يخالف ذلك للسجن، ومعاقبة كل من يأوى أحدًا من المدجنين الغرباء.

كذلك فرضت سلسلة من القيود الاجتماعية الأخرى على كـل من المدجنين واليهود، من قبل التشريع الكنسي. فقد قرر مجمع لتران Letrán الكنسي عام ١٢١٥ أن يرتدى اليهود والمسلمون المقيمـون فى المجتمعات المسيحية ألبسة تميزهم عن غيرهم. وثبت أن ارتـداء الأزياء الخاصة بالمسلمين ظل معمولاً به حتى النصف الثـانى مـن القرن الثالث عشر، كما كان هناك تمييز بشأن تمشيط الشعر وشـكل اللحية. وصدرت طوال القرن الثالـث عـشر قـرارات اسـتهدفت المدجنين، تجاوزت التمييز فى شكل الملابس إلى منعهم من ارتـداء الأقمشة القيّمة والجوخ ، أو النعال الثمينة، أو التـزين بمـا يـوحى بوضع اجتماعى راق. كذلك نصت أوامر بلديـة بورغـوس Burgos الصادرة عام ١٤٨٥ على حرمان المسلمين من استعمال المجوهرات الذهبية، أو ارتـداء المـلابس الحريريـة، أو المـلابس القرمزية، أو استعمال لون غير اللون الأسود فى التزيين.

يرجع أول القرارات الخاصة بوضع علامـة مميـزة علـى الملابس إلى ما أقره المجلس النيابى فى بالنثيا Palancia فـى عـام ١٣١٢، وما أقره المجمع الكنسى فى سمُوره Zamora عـام ١٣١٣، وطبقت على اليهود فقط. أما بالنسبة للمدجنين، فقد أمر الملك هنـرى الثانى فى مجلس تورة Toro النيابى وفى مرسوم له فى عام ١٤٠٨ ، بوضع هلال أزرق على الكتف الأيمن، وقلنسوة لونها أصفر ضارب إلى الخضرة. ونص قانون عام ١٤١٢ الشهير، والذى سبق أن أشرنا

إليه، على حظر ارتداء الأقمشة الثمينة، وحلق اللحية أو شعر الرأس، كما نص على ألا يدعى أحد منهم فى التعامل بلفظ دون Don (سيد) وأدرجت مراسيم ملكية أخرى هذه القواعد، علـــى صـــور مختلفـــة، وفسر كثير من الكتاب تكرار هذه التعليمات بالإعراض دائمًـــا عـــن تنفيذها(*).

مظهر آخر من مظاهر التمييز الاجتماعى، تمثل فى الفـــصل الإسكانى، وقد بدأ ذلك يتبلور فى مجمع سلمنكا **Salamanca** الكنـــسى عام ١٣٣٥م. وأكد مجمع بالنثيا الذى عقد على ١٤١٢ على ضرورة تطبيق فصل أحياء المسلمين وأحياء اليهود بشكل عام، مع التـــصريح لهم بتملك محال وورش خارج المناطق السكنية. وأخيرًا نص قـــانون عام ١٤١٢ على فصل اليهود والمسلمين وإبعادهم إلى أحياء خاصـــة بهم، ونص أيضًا على عدم السماح لهم بالإقـــامة مع المـــسيحيين، بل وأكد على ألا يدخل المسيحيون، والنساء بوجه خـــاص، الأحيـــاء الخاصة بتلك الطائفتين.

صـــدرت أيضًا قـــرارات أخـــرى تقـــضى بعدم الاتـــصـــال أو التقارب، فمثلاً تقرر منع النساء المسيحيات والمـــسلمات مـــن أن ترضع إحداهن طفلاً من دين غير دينها. واتخذ مجلـــس ســـيبوليبيدا

(*) بهذا المنطق نفسه تم تفسير مجموعة القرارات التى تحظر سفر المسلمين إلى بلاد العالم الجديد على أنه دليل يفيد على وجود المسلمين هناك. (المراجع)

Sepulveda قائمة من القرارات، منها اعتبار أى امرأة مسيحية ترعى أطفالاً مسلمين أو يهود أو تعيش معهم، امرأة بغية تطبق عليها عقوبة الجلد والطرد خارج البلدة. كما تقرر عدم التصريح للمسلمين أو اليهود باقتناء عبيد أو خدم مسيحيين. وشملت قرارات الحظر أيضًا عدم الاتجار بالمأكولات الجاهزة وبيعها للمسيحيين، على أن يبيعوا لهم فقط الحيوانات الحية، وألا يتملكوا محالاً لتجارة المواد الغذائية أو البقالة. إننا ندرك أن هذه القيود لم تدخل حيز التنفيذ بشكل مستمر ؛ فقد جاء فى وثائق بورغوس مثل وجود بائعين من الباطن من المدجنين اشتغلوا بتجارة المواد الغذائية. كذلك اشتملت أحياء المسلمين واليهود على مخابزها، ومجازرها، وحماماتها، وجباناتها الخاصة فى مواقع منعزلة.

كانت مهنة الطب من المهن التى لم يسمح للمسلمين أو اليهود بممارستها، شأنها فى ذلك شأن كل ما من شأنه أن يوجد مجالاً للاتصال، بل وكل ما يمكن أن ينطوى على تفوق على المسيحيين. ولقد رأينا أن هذا الحظر لم ينفذ بالنسبة لليهود، وإن كان يدخل فى حيز التطبيق فى حالة إذا ما كانت هناك رغبة فى القضاء على شخص ما، أو تقديمه بوصفه كبش فداء لعدم رضاء السلطة الملكية عنه. منع المسلمون واليهود أيضًا من العمل بقالين، أو صيادلة، أو أطباء، أو جراحين، أو قابلات (مجمع بلد الوليد الكنسى

عام ١٣٢٢، ومجمع سلمنكا عام ١٣٣٥ وقانون ١٤١٢). مرة أخرى ثبت فى بورغوس أن الواقع لا يتفق بالضرورة مع ما هو مشروع، ففى عام ١٤٨٤ قرر المجلس البلدى هناك منع المسلمات من ممارسة مهنة القابلة أو الممرضة، ولكنه أشار فى النص نفسه إلى أنه فى حالة تطبيب امرأة مسيحية من آلام نسائية وتطلب الأمر استدعاء مسلمة يُصرح للمسلمة بالاستجابة بموجب ترخيص من السادة المعاونيين والقضاة العاديين بالمدينة.

كان الزواج المختلط من المحظورات أيضًا، وكذلك دخلت إقامة العلاقات الجنسية أو العاطفية قائمة الممنوعات. هذا ولم يسمح لليهود أو المسلمين بتولى شئون الوصاية، ولا يستعان بهم فى الشهادة ولا يتخذ أحد منهم أبًا روحيا. ولم يسمح لأحد ممن ينتمون إلى طائفة بحضور الحفلات الخاصة التى تقيمها الطائفة الأخرى. وكان نظام السلام والتعايش قائمًا على التمييز بين الطوائف، بل وكانت الأقليات نفسها تسعى إلى هذا التمييز ، بوصفه وسيلة من وسائل الحماية، وأسلوبًا للمحافظة على ترابط الجماعة وتماسكها، والتمسك بالتقاليد التى تحكمها وبشعائرها الدينية. كما كان محظورًا على المسلمين واليهود أيضًا حضور أعياد المسيحيين وصلواتهم. مرة أخرى نشهد أن روح التسامح على الصعيد الشعبى كانت أكثر قوة من القوانين. واعترف بذلك مجمع بلد الوليد الكنسى، والمجمع الأسقفى لمدينة

طليطلة، إذ أصدرا أوامر تقضى بأنه "من الآن فصاعدًا لا يسمح بحضور المسلمين أو اليهود فى الكنائس أثناء الاحتفالات، كما يحظر على المسيحيين المشاركة فى حفلات الزواج، أو فى جنازات المسلمين أو اليهود. وعلى الرغم من هذه التفرقة التى يفرضها القانون كانت علاقات حسن الجوار سائدة بين مختلف الطوائف. وقد شارك مسلمو مدينة أبيلا Avila المسيحيين أحزانهم أثناء مراسم جنازة هنرى الرابع فى الكاتدرائية، كما شاركوهم أفراحهم بمناسبة الاحتفال بتولى إيسابيل عرش البلاد بعد بضعة أيام.

من جهة أخرى، اتخذت مجموعة من الإجراءات القانونية، استهدفت دفع الناس إلى اعتناق المسيحية، كما نصت على إنزال أشد العقاب على من يرتد عن المسيحية، أو من يتحول من اليهودية إلى الإسلام أو العكس. وتضمنت الضغوط الاجتماعية والاقتصادية التى تحض الناس على التنصر احترام حق الملكية للمتنصر (مجمع مدينة بنيافييل Peñafiel الكنسى عام ١٢٠٣) كما تضمنت أيضًا تقديم مساعدات نقدية، وعطايا للمتنصر الفقير (مجمع بلد الوليد الكنسى ١٣٢٢) هذا بخلاف ما قد يتمتع به المتنصرون من معاملة ضرائبية أكثر ترفقًا، إضافة إلى وضع قانونى لا يشوبه تمييز.

محصلة هذه القرارات كانت مدمرة، ولا تتفق كثيرًا مع مفاهيمنا المعاصرة عن التسامح، مهما تصورنا تصاعد هذه المحصلة

وما صاحبها من غياب التوازن بين الإصدار والتطبيق عبر ثلاثة قرون، ومهما أشارت الوثائق إلى أن التعايش اليومى بين مختلف الطوائف كان بعيدًا عن صرامة القانون. كان القوى هو الذى يستند إلى ذلك التشريع كلما رأى نفسه فى حاجة إليه، ومن هنا يتبين أن الأقليات كانت تعانى من التهميش والعجز عن الدفاع عن نفسها تمامًا. ومع ذلك ينبغى ألا نغفل أن تلك الظروف التى ألمت باليهود والمدجنين كانت أفضل كثيرًا من تلك التى مر بها اليهود فى مختلف البلاد الأوروبية المعاصرة فى ذلك الوقت، بما فى ذلك ما اتخذته الممالك الأوروبية جميعها من قرارات تقضى بطرد اليهود من أراضيها خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر.

أما فيما يتعلق بمجالات المدجنين المهنية، فقد رأينا أن كثيرًا من القرارات التشريعية التى أشرنا إليها وضعت قيودًا شديدة أو منعت من ممارسة مهن بعينها، وبخاصة تلك التى لها علاقة بدوائر الاختصاص العمومية، والتغذية، والطب. وأضاف القانون الصادر عام ١٤١٢ المهن التالية إلى قائمة الممنوعات : البيطرة، والحدادة، والنجارة، وصناعة الدروع، والحياكة، وتجارة الجوارب، والجزارة، وتجارة الجلود، والملابس المستعملة، وتجارة الجملة. إلا أن هذه القرارات لم تدخل فيما يبدو حيز التنفيذ بالفاعلية الكافية على أرض الواقع . حقيقية إننا لم نتوصل إلى معرفة ما إذا كان ثمة

مسلمين شغلوا مناصب عامة، أو كان لهم دور فى ممارسة الطب (وإن كانوا يقومون بعمل الممرضين والقابلات إلخ...) ولكننا عرفنا - كما سيتبين فيما بعد - أن هناك من اليهود من كان يمارس تلك المهن، علمًا بأن قرارات الحظر كانت تشملهم. ويرجع السبب الأساسى فى هذا التمييز إلى وضع كل من الأقليتين. فسرعان ما فقد المدجنون النخبة والطبقة المثقفة لأن هؤلاء آثروا الهجرة إلى الأندلس، بينما تمسك اليهود بالمناطق التى استولى عليها المسيحيون(*) اعتبارًا من نهاية عهد ملوك الطوائف (واحتلوا مناصب متميزة بها) وحتى غزو المرابطين، واحتفظوا بطبقة الصفوة، والطبقة المثقفة منهم. ولذلك ازداد وضع المدجنين تدهورًا وتهميشًا، ولكنهم لم يكونوا عرضة لمناخ عدائى على الصعيد العام فيما يبدو ، على عكس الحال تجاه اليهود.

تناولت وثائق المدن الرئيسية فى قشتالة المدجنين وأشارت إلى ممارستهم لمختلف لصور النشاط الحرفى، وخاصة الأنشطة المتعلقة بقطاع البناء، والحدادة، وصناعة الأقفال، والزجاج، والفخار،

(*) تفضيل اليهود الإقامة فى الممالك المسيحية يتناقض مع ما ورد فى كتاب آخر يقول فيه يهودى "إن معاملة المسلمين لنا أفضل كثيرًا من معاملة المسيحيين" انظر كتاب "بين الإسلام والغرب" ترجمة ممدوح البستاوى، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥. (المراجع)

والسلال إلخ... وقد ثبت وجودهم على نطاق كبير في مجال البساتين. وفي سيغوبيا كانت جميع المحاصيل البستانية في ضواحي منطقة البارال Parral خاصة بهم وحدهم. وانفردت بورغوس بوجود نجارين مسلمين مهرة في صناعة الأدوات الحربية، كما اشتغلوا أيضًا رجال إطفاء. كذلك كان هناك نجارون من بلد الوليد. إنها حرف متواضعة في العادة وجدت في المناطق الحضرية والمناطق المحيطة بها. ولعل الطابع البسيط والخلاق الذي اتسم به المدجن (الموريسكي فيما بعد) والذي تناولته أدبيات العصر إنما هو انعكاس لذلك القصور المهني والاجتماعي الذي يصعب تجاوزه.

من حسن حظ الأقلية المسلمة في قشتالة أيضًا أن أحدًا لم يبد اهتمامًا بها. وهذا يعني أننا لا نعرف إلا النزر اليسير عن المناخ الذي كان يؤدي فيه المدجنون شعائرهم الدينية. ولعل ما نعرفه حقًا أنه كان لزامًا عليهم أن يعربوا عن آيات الإجلال والتقدير للديانة المسيحية؛ فلم يصرح لهم بالعمل علانية أيام الأحد أو في الأعياد الرسمية، وكان يتحتم عليهم أن يحبسوا أنفسهم في ديارهم فترة أسبوع الآلام، كذلك كان لزامًا عليهم أن يجثوا راكعين إذا تصادف مرور القربان المقدس أمامهم. وبالنسبة للنشاط التبشيري للإسلام فقد كان محظورًا، وكان من يقدم عليه يعرض نفسه لأشد صنوف العقاب.

بوسعنا أن نؤكد – على ضوء هذه المعلومات إذن – أن طائفة المدجنين فى قشتالة كانت مجرد أقلية محدودة العدد، ومع ذلك عاشت فى استقرار على مدى العصور الوسطى ، وكانت بعيدة كل البعد عن كونها كتلة واسعة الانتشار فى مختلف المواقع. وكانت مقسمة إلى جماعات استقرت فى مناطق الحضر بشكل أساسى، حيث تركز نشاطها فى الفنون الحرفية والتجارة البسيطة والفنون التى تتعلق بالبناء : فن العمارة باستخدام الطوب، وأعمال الجبس، والنجارة، والفنون الحرفية. نماذج متراكبة على الطراز الرومانى، تطالعنا بها فنون المدجنين بدءًا من سيغوبيا وحتى بالنثيا Palencia، بما فى ذلك ليون وبورغوس. تميز الطراز الفنى الذى عرفناه عن المدجنين خلال العصور الوسطى المتأخرة بالتكامل والتماثل مع مختلف الطرز المسيحية (الرومانى، والقوطى، وطراز عصر النهضة ... إلخ) دون أن يوحى مظهره بوجود ضمنى لجماعة من المدجنين.

لعل أكثر العصور تأثرًا بالمدجنين، بالنسبة لقشتالة هى تلك الفترة التى تمتد ما بين القرن الثالث عشر والقرن الخامس عشر، ولقد فتح القرن الثالث عشر (اعتبارًا من موقعة العقاب Navas De Tolosa التى دارت رحاها عام ١٢١٢م، وأسفرت عن هزيمة ساحقة للسلطة المسلمة) فتح الطريق أمام عدد هائل من الغزوات الإقليمية التى شملت أيضًا منطقة وادى نهر الوادى الكبير. فى ذلك

الوقت كان خايمى الأول ملك أراغون يشن هجماته على القطاع الشرقى لشبه الجزيرة كله. ونتيجة للاحتلال العسكرى السريع لمناطق شاسعة، كثافة السكان فيها عالية، وغنية بموارد اقتصادية وريفية متطورة للغاية، اضطر الغزاة (وكان ينقصهم الحرفيون المتخصصون، والعمال المدربون على نظم الرى) إلى الاستعانة بسكان المناطق التى تم الاستيلاء عليها. وترتب على ذلك تأثير هائل ترك المدجنون بصماتهم من خلاله على الحياة اليومية للغزاة المسيحيين.

اتخذ القشتاليون بعد احتلالهم للغرب الأندلسى من بيوت المسلمين التى شيدها أصحابها ما يتناسب مع احتياجاتهم. أما البيوت الجديدة فقد قام ببنائها الحرفيون من المدجنين، وتم تجهيزها بالسجاد، والحصير، والأثاث، والقيشانى أو السيراميك ، والأوانى الفخارية، التى نقلت من بيوت الأندلسيين. وكان القطاع الأكبر من خدم المنازل، والمرضعات، وعمال الحدائق والبستانيين، من المدجنين . وبدا تأثير المدجنين واضحًا تمام الوضوح فى العادات والتقاليد ومظاهر الترف فى الأكل، بل وفى الملابس أيضًا . حتى القرن الخامس عشر كان القشتاليون يفضلون أزياء المسلمين، وخاصة الطبقة الأرستقراطية، وإن كان ذلك يحدث بشكل عارض، وحتى الملكة إيسابيل الكاثوليكية نفسها، شأنها شأن كثير من النساء، كانت

ترتدى أزياء المسلمين. وكان بدرو الأول ملك قشتالة، الذى شيد حصن إشبيلية **Alacazar**، ودير طوردوسيلاس **Tordosilas**، وهما من الآثار الرائعة المتميزة بالطابع الفنى الذى عرف عن المدّجنين، كان مغرمًا بارتداء الزى الإسلامى. لم يرجع تأثير المدجنين هذا إلى بقاء سكان منهم فى المناطق التى استولى عليها المسيحيون فحسب، بل يرجع أيضًا إلى الاتصال الذى لم يتوقف على مدى قرنين من الحرب مع حدود مملكة غرناطة، ويرجع أيضًا إلى تدخل القشتاليين فى شئون الغرناطيين الداخلية. وقد وصفت مملكة غرناطة أيضًا بدورها بأنها مملكة (مدجنة) لأن بقاء المملكة كان مرهونًا بدفع الجزية لمملكة قشتالة.

وكان من نتائج الحرب أيضًا، وقوع عدد كبير من الجانبين فى الأسر، وبالنسبة للقشتاليين استخدم الأسرى فى الأعمال المنزلية بشكل دائم تقريبًا ، كما أن وجود عدد كبير من الغرناطيين ممن كانوا يلجأون فى بعض الأحيان ويلتحقون بالبلاط القشتالى بصفة مؤقتة، لأسباب سياسية، كان له دوره أيضًا فى التأثير على أزياء العاملين بالبلاط وعلى أسلوب حياتهم.

ولما زار عدد من الرحالة الأوروبيين البلاط القشتالى فى القرن الخامس عشر، أبدوا دهشتهم واستنكارهم لما شاهدوه من طغيان الطابع الإسلامى على البلاط. وكان ذلك واضحًا تمام الوضوح فى

فرق الحرس الغرناطية المسلمة(*)، الخاصة بالملك. فقد التحقت جماعات من مملكة غرناطة ممن اضطروا إلى الخروج من المملكة بسبب الصراعات الأهلية التى دارت هناك، التحقت بخدمة ملوك قشتالة خوان الثانى (١٤٠٦-١٤٥٤) وإنريكى الرابع (١٤٥٤-١٤٧٤). ولعبت الصراعات التى دارت بين مختلف المرشحين لتولى عرش قشتالة دورًا فى تهيئة المناخ أمام هؤلاء المرشحين فى الاستعانة بجيش غريب عن المجتمع القشتالى وأحزابه، يدين بالولاء للملك. وغالبًا ما كان يعود هؤلاء الفرسان إلى غرناطة إذا ما تغيرت الأوضاع وأصبحت لا تتناسب مع رغباتهم، ومع ذلك كان أغلبهم يفضل البقاء فى قشتالة، وعلى الرغم من انتهاء المطاف بهم إلى التحول إلى الديانة المسيحية، فإنهم ظلوا متمسكين بالطابع الغرناطى، سواء كان فى الملبس أو فى تسريج الركائب أو فى التسلح. يقول المؤرخ ألونسو دى بالنثيا **Alonso De Palencia** المعاصر للملك إنريكى الرابع "تضاعفت أعداد الحاشية من المسلمين؛ فقد لقى لباسهم ارتياحًا لدرجة أن الملك كثيرًا ما كان يبدى إعجابه بأفضل من يحاكيهم فى الملبس؛ وكان الفرسان من الغرناطيين والبربر، لما كانوا يتميزون به من تفوق فى (المبارزات)، وإن كانوا أقل كفاءة فى

(*) كان بعض الملوك الإسبان المسيحيين يتخذون حراسًا من المسلمين، وقد استند الجنرال فرانكو إلى هذه المعلومات ليبرر أمام منتقديه استخدام حراس مغاربة بعد انتصاره فى الحرب الأهلية الإسبانية. (المراجع)

المعارك الجدية، يلقون قبولاً وتفضيلاً عن فرساننا رغم تميز فرساننا عنهم فى القامة والقوة". هذه العوامل الشكلية – الجلية فى نطاق ظاهرة عميقة – كان لها دورها فى طرح شخصية فريدة للنهضة فى إسبانيا، نهضة علاوة على انطوائها على الآثار الكلاسيكية، كما هو الحال فى إيطاليا، تشربت بالطابع المدجن وطابع العصور الوسطى. أضف إلى ذلك أن هذه العوامل تجلت أيضًا وبمنتهى الوضوح فى قصور النبلاء فى إشبيلية (بيت إيبلاتو فى إشبيلية، مثل طيب لذلك) حيث تزين التماثيل الرومانية الواردة من إيطاليا، أو الفسيفساء الواردة من (إسباليس) بيوتًا تجلت فيها مهارة الحرفيين المدجنين فى أعمال الجبس والقيشانى.

أُلغى الحرس عام ١٤٦٦، ولكن بقى بعض أفراد منه فى قشتاله بوصفهم مدجنين . ومنهم الفارس فرج دى بلفيس **Farax De Belvis**، الذى عين بعد انتهاء خدمته فى الحرس محصل ضرائب (ضريبة الخدمة ونصف الخدمة) فى جمعيات المسلمين، وفى عام ١٤٥٢ عين قاضيًا فى جماعة المسلمين فى وادى الحجارة **Guadalajara**.

ومع ذلك، كانت النخبة من المدجنين مجرد قلة، وكانت تلك النخبة تتحرك فى فلك الملوك أكثر من تحركها لخدمة الطوائف التى ينتمون إليها، بعد أن تراجع فيها استخدام اللغة العربية كما سبق أن ذكرنا. وعلى الرغم من أن الإسلام فى عصر المدجنين كان مقيدًا

وضعيفًا، فإن حالات التحول الدينى لم تبدأ فيما يبدو قبل عام ١٥٠١م. ومع ذلك، فإن الظروف السياسية والدينية التى بدأ فيها القرن السادس عشر فى قشتالة أدت إلى إصدار مرسوم يقضى بتحول المدجنين إلى المسيحية بصورة جماعية. رأى المدجنون القشتاليون أنفسهم مطوقين بالأحداث، وغارقين فى المنازعات التى أخذت تزلزل فى ذلك الحين مملكة غرناطة بعد الاستيلاء عليها، وأنه يتعين وضع سكانها فى الحسبان، رأوا أنفسهم فى عام ١٥٠٢ أمام معضلة كالغرناطيين، إما أن يهاجروا فى ظل ظروف كانت الهجرة تبدوا فيها أمرًا شبه مستحيل، وإما أن يسلموها بالتعميد. ومن الناحية العملية، تحولوا جميعًا إلى المسيحية(*).

وهكذا تلاشت فى عام ١٥٠٢ طائفة المدجنين المحدودة وتراجع معها وضعهم القانونى. وبقى المدجنون بموجب قرار تحت مسمى "المسيحيون الجدد" . ثمة ملاحظة هامشية للاضطرابات التى سادت فى غرناطة، هى أن تلاشى هذه الطائفة لم تصاحبه صراعات، ولم يحدث جلبة، بل ولم يستدع اتخاذ إجراءات سياسية خاصة. ومع ذلك لم يستطع أحد أن يغفل فى القرن التالى ظهور مشكلة الموريسكيين، وإن لم تبد حادة فى قشتالة كما كان الحال فى مناطق أخرى بالبلاد.

(*) كان تحولاً ظاهريًا فقط، أما فى الخفاء فكانوا يمارسون شعائر الإسلام. (المراجع)

غرناطة :

سوف نلقى لمحة سريعة فقط على غرناطة، لأن لائحة المدجنين ظلت قائمة فى هذه المنطقة وحدها نحو عشر سنوات، ولذلك سوف نتناول المجتمع الغرناطى فى الجزء الخاص بالموريسكيين.

فى عام ١٢٣٧ كانت غرناطة عاصمة آخر الممالك الإسلامية فى شبه الجزيرة. وكانت تشتمل على أقاليم مالقة **Malaga**، وغرناطة **Granada**، والمرية **Almeria** الحالية، وتخضع لحكم بنى نصر. تميزت هذه المملكة بكثافة سكانية عالية، أضيف إليها لاجئون مسلمون وفدوا إليها من جميع المناطق التى استولى عليها المسيحيون. ولما كانت هذه المملكة تخضع لتاج قشتاله، وكان سلاطينها يدفعون الجزية، تعرضت لتدخلات قشتالية فى نزاعاتها السياسية الداخلية، علاوة على الدخول فى حرب حدودية استمرت على مدى عامين .

أخيرًا سقطت غرناطة على أيدى الملكين الكاثوليكيين عام ١٤٩٢، اللذين عقدا اتفاقات متميزة مع الملوك المسلمين على غرار تلك التى أبرمت خلال أفضل عهود المدجنين. شهد ذلك العام أيضًا صدور المرسوم الذى يقضى بطرد اليهود ، وهذا ما جعل نهاية عصر الاتفاقات أمرًا متوقعًا.

معاهدة الاستسلام التى وقعت قبل سقوط غرناطة، أثناء عمليات الغزو التى انتهت عام ١٤٩٢، كانت تسمح للأندلسيين بالنزوح إلى المغرب. أما بالنسبة للاتفاقات الموقعة أثناء الاحتلال القشتالى للقطاع الغربى من المملكة (١٤٨٤-١٤٨٧)، باستثناء مالقة، فقد منح المنتصرون مهلة تتراوح من عام إلى عامين لمن أراد من المسلمين أن يتوجه إلى الجانب الآخر للمضيق، وسمحوا لهم بالمرور مجانًا بأمتعتهم المنقولة. وبانتهاء تلك المهلة كان على كل من أراد الهجرة أن يسدد رسومًا للمرور . وأما بالنسبة لكل من غرناطة ، والبشرّات **Alpujarra** ، فقد منح الملوك الكاثوليك سكانهما بعد أن ألقوا السلاح بانتهاء الحرب، مهلة ثلاث سنوات لمن أراد الخروج. وإن ما كانت تسعى إليه السلطات المسيحية حقيقة ليس إلا تخليص المجتمع الإسلامى فى غرناطة من رعوسه، بما يقضى على طبقاته الحاكمة. ولقد بعث هرناندو دى ثافرا **Hernando de Zafra** برسالة إلى الملك والملكة مؤرخة فى ديسمبر ١٤٩٢، أفاد فيها بمرور أفراد الأسر الكبيرة فى غرناطة بمنطقة ما وراء الجبال، وأعرب فيها عن تهانيه بأنه لم يبق بالمملكة سوى "عمال ومستخدمين مسلمين" وفى حديثه عن منفى أبى عبد الله، ملك غرناطة هو وأسرته، يقول بدرو مارتر دى أنغليريا **Pedro Martir de Angleria** فيقول : "وبذلك يزول أى احتمال لحدوث تمرد بين من يفتقرون إلى

القانون، فنادرًا ما تتقلب الشعوب أو تعلن تمردها عندما يغيب عنهم من الزعماء من ينتظرون الخضوع لحكمهم". كانت الهجرة تتم في الخفاء بعد فرض التحول إلى المسيحية إجباريا في عام ١٥٠٢م، وبلغت ذروتها في الفترة من عام ١٥٠٤ إلى ١٥١٠م.

في غضون بضع سنوات، أي ما بين عامي ١٤٩٢ و ١٤٩٩، استقرت الأمور على حالها، وساعد على استقرارها عدد من نبلاء غرناطة (المتعاونين)، تحول القطاع الأكبر منهم إلى المسيحية، وتعايشوا مع السلطة الجديدة، واشتركوا في بعض الأمور من بينها عمليات توزيع الأراضي على النبلاء والمستوطنين المسيحيين. بقيت في مملكة غرناطة الجديدة مجموعة من الأسر المسلمة وحصلت على الامتيازات التي كانت تتمتع بها طبقة النبلاء، وذلك مقابل ما قدمته من خدمات إلى التاج، وكانت تلك الامتيازات تقتضي أن يكون أفراد تلك الأسر قد اعتنقوا المسيحية طواعية وقبل سقوط المدينة (وعلى أي حال قبل صدور قرار التنصير الإجباري الصادر عام ١٥٠٢) أو أن يقدموا ما يثبت انتماءهم إلى سلالة الملوك المسلمين في غرناطة . تمتعت تلك الأسر، ومن بينها بعض الأسر الشهيرة مثل أسرة غرناطة بنيغاس، والثغري، ونونييث مولاي... إلخ، تمتعت بكافة الامتيازات والجبايات غير القانونية لصالح النبلاء، وتزوج أفرادها من أسر الفاتحين أو المستوطنين، واندمجت اندماجًا كليًّا مع

الأقلية الحاكمة فى غرناطة، وكان تكاملها تكاملاً مطلقًا . ارتبطت بالجمعيات الدينية، وانضمت إلى الأنظمة العسكرية، وشغلت مناصب فى حكومة المملكة. كان دورها فى الدفاع عن مصالح طائفة الموريسكيين متباينًا. وشارك القطاع الأكبر منها فى حرب البشرَّات إلى جانب المسيحيين. كما نجوا من عمليات الطرد التى تمت عام ١٥٧٠ وعام ١٦١٤. وكانت هذه الأسر تمثل مجموعة لا يستهان بها، كما كانت نموذجًا للاندماج والانصهار الموريسكى فى المجتمع المسيحى.

أما فيما يتعلق بالشعب البسيط، فقد تدهور وضع المدجنين تدهورًا سريعًا خلال السنوات الأخيرة من القرن لأسباب اقتصادية (مثل دمار صناعة الحرير، حيث لم يبد المسيحيون اهتمامًا باستمرارها) وبسبب وصول المستوطنين المسيحيين ثم شغلهم للأراضى، وتدهور وضعهم بشكل خاص لأسباب دينية . ووصول الكاردينال ثيسنيروس **Cisneros** إلى غرناطة أدى إلى إعلان حملة عنيفة تقضى بالتحول إلى المسيحية، أدت إلى اندلاع ثورة أجج نيرانها المدجنون فى ربض البيازين **Albaicin** وغرناطة عام ١٤٩٩. وامتدت الثورة لتشمل كل المملكة دون أن يتمكن أحد من إخمادها حتى عام ١٥٠١. فقد ثار المدجنون لما أدركوا انتهاك العهود ، واعتقد المسيحيون أن التمرد كان قد انتهى بتوقيع الاتفاقات. ثم أدى

ذلك إلى صدور قرار التحول الإجبارى إلى المسيحية عـــام ١٥٠٢، والذى سبق أن تحدثنا عنه، وامتد العمل به فى المنـــاطق الخاضـــعة لتاج قشتالة.

مملكة أراغون :

فى هذا الجزء لن أعيد الحديث عن قضايا التشريع الكنســـى، أو حول التنظيم الداخلى للجمعيات، ولا أية عناصر أخرى مـــشتركة مع ما سبق التعرض له مع المدجنين فى المناطق القـــشتالية، ولكـــن سوف أركز أساسًا على العلامات المميزة للمـــدجنين فـــى المنـــاطق الخاضعة للتاج الأراغونى بما فيها فالنسيا.

فى البداية، وعلى خلاف ما هو معروف فى قشتالة، نعـــرف جيدًا أن أصل المدجنين إنما يرجع إلى السكان الأصليين الذين أقاموا فى المنطقة قبل الغزو المسيحى. إنهم سكان ريفيون فـــى الأســـاس، أقاموا بكثافة فى وديان الأنهار الرئيسية فى بلدان صـــغيرة للغايـــة، وأحيانًا كان سكان تلك البلاد جميعهم من المدجنين فقـــط، وخاصـــة أراضى السلطة أو المناطق العسكرية. أى أن وضعهم يختلف تمامًـــا عن الوضع فى قشتالة، وهو ما سوف نتناوله فيما بعد.

بعد مرور ثلاثة قرون من السيطرة الإسلامية، بدأت البلـــدان الصغيرة بمنطقة البرانس التى أفرزتها الاضطرابات بـــين الـــسكان

الأصليين وبمساعدة الممالك الفرنسية المجاورة، فى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر، بدأت توسعًا إقليميا حتى وصلت إلى وادى نهر الإبرو **Ebro**. كان عدد سكان تلك الحصون البرانسية المتناهية الصغر قليلاً، وبالتالى كانت طاقتهم السكانية عاجزة عن شغل المناطق التى تم الاستيلاء عليها من السلطة الإسلامية، لذلك أبقت التوسعات التى تحققت فى القرن الثانى عشر على قطاعات كبيرة من سكان المناطق التى تم الاستيلاء عليها من المسلمين الذين قبلوا البقاء تحت سيطرة المسيحيين. أما فئة القيادات ورجال السلطة، وأصحاب الأراضى، وكبار رجال الدين والمثقفين الأندلسيين، فقد اختاروا حياة المنفى فى ظل سلطة مسلمة. ولقد كان لاحتمال البقاء فى ظل ظروف مريحة نسبيا أثره فى استسلام كثير من المناطق، وهذا ما خفف من حدة العمل العسكرى والسكانى، كما كان له أثره فى تأمين قطاع الزراعة والقطاع الاقتصادى. كانت شروط الامتيازات وشهادات التخصيص تستهدف التحكم فى السكان المسلمين والسيطرة عليهم، خاصة أنهم كانوا يتمتعون بوضع معقول (حرية الهجرة، واستثناء من الأعمال الشاقة، والاحتفاظ بالهوية الدينية وبقوانينهم وسلطاتهم)، هذا بالإضافة إلى ظروف ضرائبية أفضل من تلك التى كانت تطبق فى ظل السلطة المسلمة إبان عصر المرابطين الذى تميز بالقسوة.

بذلك احتفظت منطقة وادى نهر الإبـــرو، مـــن تـــوديلا Tudela وحتى طرطوشة، وكذلك وديان روافده الرئيسية، (وخاصة نهر ثينكا Cinca، وسيغرىSegre، وخـــالون Jalon، وخيلوكـــا Jiloca) وهـــى مناطق غنية جدا بالزراعة، احتفظت بكثافـــة عاليـــة مـــن الـــسكان المدجنين، ظلوا حتى أدركوا العصور الوسطى المتأخرة فى ظـــروف ساد فيها التمييز والتهميش، كما كانت أحوال المدجنين فـــى قـــشتالة. كانت هناك أيضًا جماعات مهمة فى كل من مدن سرقسطة، وأويسكا Huesca، وبربُشترBarbastro، وقلعة أيوب. ولكن كثافـــة المـــدجنين العددية بالذات تركزت فى وديان مجرى نهـــر الإبـــرو، والوديـــان الواقعة على روافد ضفته اليمنى. ذلك لأن نظـــم الزراعـــة وتنظـــيم عمليات الرى وكل ما له علاقة بـــبعض الأنـــشطة ذات المرجعيـــة الإســـلامية القوية، رأت فى تلك المنـــاطق خير من يـــستوعبهـــا. أما بالنسبة لسادة القوم، فقد ترسخت سلطاتهم هنـــا بـــامتلاك أراض يقوم على زراعتها نسبة كبيرة من الأيدى العاملة من المدجنين، لقيت تقديرًا كبيرًا من جانب السادة (النبلاء)، ومن المقولات المعبرة التـــى كانت تتردد : "من كان لديه مسلم، ملك فى يديه الذهب ".

ولكى نتعرف على عدد السكان المدجنين فى أراغون، ربمـــا لا تتوفر أمامنا سوى بعض المصادر ذات الطابع الضرائبى، كما هو الحال بالنسبة لقشتالة، علمًا بأن هذه المصادر ليست على قدر كبيـــر

من الثقة... أما أول إحصاء محفوظ فإنه يرجع إلى عام ١٤٩٥، وقد أجرى بناء على أوامر من المجلس النيابى فى تاراثونا (بلاط) Tarazona. ويتبين من هذا الإحصاء أنه كان هناك ٥١٥٤٠ منزلاً منها ٥٦٧٤ منزلاً تخص المسلمين. ولكن الخبراء يرون أن هذا الرقم قليل جدًا عن الواقع، ويبررون ذلك بأن الجماعات كانت تلجأ إلى إخفاء الأرقام الحقيقية، لإدراكها أن أى بيانات سيكون لها مردود ضرائبى.

وكما هو الحال في شمال قشتالة، فقد ترتب على وجود المدجنين فى أراغون نتائج ملموسة وواضحة حتى يومنا هذا، تمثلت فى ظهور فن المدجنين. وهذا الفن هو أحد فنون العمارة، امتزجت فيه عناصر الفن الإسلامى بعناصر الفن الأوروبى بنسب مختلفة، فأفرزت شكلاً جماليا جديدًا، فالنتاج الفنى للمدجنين إنما هو نتاج أو فن أصيل نبع من شبه الجزيرة الإيبيرية واقتصر عليها وحدها، وقد انتشر وتأصل (من القرن الثانى عشر، وحتى القرن السادس عشر، ولكن طرأت عليه بعض المظاهر المستحدثة فى القرن ١٩) وقد تكامل مع النظم المعمارية وعناصر الديكور الإسبانية، وتجلى فى تحريك الحس الجمالى حتى انتهى به الأمر إلى الانفراد بطابع مميز له عُرف به، سواء كان ذلك فى مناطق استقر فيها أو لم يستقر

بها مدجنون. وقد تبنت مدينة سرقسطة إقامة المركز الرئيسى لإبداع فن المدجنين الأراغونى، كما كانت مركزًا إشـعاعيا انتـشرت منـه نماذج مدجنة ووصلت إلى مدن ومناطق أخرى. وقد قام كثيـر مـن المدجنين المتخصصين فى حرف متعلقة بفن البنـاء ببنـاء قـصور وأديرة وكنائس للمسيحيين الذين وصلوا حديثًا إلى مختلف المنـاطق، فى طليطلة أو ليون أو بالنثيا Palencia أو إكستريمادورا أو أنـدلوثيا. ونفذ المدجنون نماذج تعطى انطباعات رائعة بالثراء المبهر تجلت فى العمارة الدينية والمدنية والحربية، فضلاً عن المنشآت الحضرية (كما نلاحظ فى داروكا Daroca) مستخدمين فى ذلك مواد رخيصة يـسهل الحصول عليها مثل الطوب الأحمر، والسيراميك المزجج، والجبس، والخشب، معتمدين على تطبيق نظم وتقنيات فنية ذات طابع إسلامى بحت.

فالنسيا :

اكتسب التوسع القطالونى الأراغونى دفعة هائلة فـى القـرن الثالث عشر مع تولى الملك خايمى الأول مقاليـد الـسلطة. ويعتبـر الاستيلاء على ميورقة (١٢٢٩-١٢٤١) أول مراحل هذا التوسـع، إلا أننى سوف لا أركز على ذلك لأن المسلمين هناك كـانوا أسـرى

واعتبروا عبيدًا لا حق لهم فى تطبيق القانون الخاص بالمدجنين. أما بالنسبة لغزو مملكة فالنسيا خلال الفترة من ١٢٣١ إلى ١٢٤٥ فالأمر يختلف تمامًا، حيث اتبعت هناك سياسة الأحلاف؛ بهدف إبقاء السكان المسلمين فى وضعهم الطبيعى، مما جعل من السكان المسيحيين أقلية حتى نهاية القرن(*).

أغلب سكان فالنسيا كانوا من المسلمين حتى نهاية القرن الذى تم الاستيلاء عليها فيه تقريبًا، وهذا لا يعنى أن التعايش هناك كان أمرًا يسيرًا أو أن السلام كان يسود هناك. فالعداء من جانب المسلمين تجاه السيطرة القطالونية الأراغونية كان واضحًا بالطبع. وفى عام ١٢٤٥ وقّع الأمير ألفونسو، وهو ابن خايمى الأول، معاهدة مع زعيم مسلم يدعى الأزرق: ونص الاتفاق على أن يحتفظ الأزرق بمجموعة من الحصون بالمنطقة الصحراوية بين دينيا **Denia**، وألكوى **Alcoy**، وتتبعان حاليًا لمحافظة أليكانتى **Alicante**، وذلك لمدة ثلاث سنوات، على أن يتم تسليم هذه الحصون إلى خايمى الأول بانتهاء

(*) لمزيد من المعلومات عن وضع مملكة فالنسيا بعد استيلاء المسيحيين عليها، انظر كتاب "دولورس" المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا" ترجمة رانيا محمد أحمد، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤ . (المراجع)

المدة، فتزعم الأزرق ثورة مسلحة بعد انتهاء المهلة، ليست في المنطقة التي احتفظ فيها بالحصون التي تعهد بتسليمها فحسب، بل استولى على عدد آخر من حصون ملك أراغون؛ مما استفز الملك ودعاه إلى اتخاذ قرار بطرد المسلمين.

واندلع تمرد آخر في عام ١٢٧٥، ولم يتمكن خايمي الأول من إخماده بسبب مرضه، فقضى عليه ابنه وولي عهده بدرو الثالث (١٢٧٦-١٢٨٦) بعد عام واحد. أخذ العداء المتبادل في التصاعد، وانقض المسيحيون خلال الفترة من ١٢٧٦إلى١٢٩١ على أحياء المسلمين في فالنسيا ، وشاطبة **Játiva** وفي مواقع أخرى، سلبًا ونهبًا.

وفي عام ١٥٧٨ طرد الملك بدرو "عددًا كبيرًا من المسلمين" من مملكة فالنسيا إلى تلمسان (الجزائر)؛ وبذلك حدث تراجع سكاني لدى مسلمي فالنسيا ، مما جعل صفة الأغلبية لا تنسحب على المسلمين في أوائل القرن الرابع عشر، بل تراجع عددهم إلى النصف. ولما اجتاحت الحروب بين قشتالة وأراغون مملكة فالنسيا في القرن الرابع عشر اتخذ الملك الأراغوني بدرو الرابع كل ما أمكنه من إجراءات لكي يعود المدجنون الهاربون إلى الأحياء التي كانوا يقيمون بها.

ومع ذلك كان المسلمون فى فالنسيا هم السكان الأكثر كثافة فى جميع المناطق المسيحية بشبه الجزيرة، اعتبارًا من تاريخ الاستيلاء عليها حتى اللحظة التى تم فيها طرد الموريسكيين، ولقد أدى موقع فالنسيا الحدودى مع مملكة غرناطة، وقربها من البحر وبالتالى من شمال إفريقيا، إلى اعتبار المسلمين هناك طابورًا خامسًا أو جواسيس فى نظر مسيحيى المملكة.

ونظرًا للكثافة السكانية، وقرب مملكة فالنسيا من مملكة غرناطة (حيث تواصلت العلاقات مع المدجنين فيها، وحيث كان يتلقى هؤلاء تعليمهم)، كان المستوى الثقافى العربى الإسلامى لدى الفالنسيين، أعلى مستوى فى شبه الجزيرة قاطبة، وحتى فى فترة الموريسكيين.

(٤)

الموريسكيون

تندرج مشكلة الموريسكيين فى التطور الشامل الذى شهده المجتمع والدولة منذ أن تولى الملوك الكاثوليك عرش البلاد. فقد تواءم اتجاه الدولة المتصاعد للتدخل فى شئون الحياة السياسية والدينية والاجتماعية جميعًا مع اتجاهها إلى تسوية بل وتوحيد المعايير القانونية والعقائدية. اتسمت هذه السياسة بالجنوح شيئًا فشيئًا نحو تقليص الإقليمية والاستثناءات من القاعدة، مما أفرز آليات وفئات اجتماعية جديدة مثل المثقفين، وذلك بهدف فرض هذه السياسة. وقد دفع الموريسكيون - شأنهم شأن جماعات أخرى - ثمن تطبيق هذه السياسة.

من جهة أخرى، تجدر الإشارة إلى أن توحد إسبانيا تحت لواء تاج واحد أصبح يتم بالتوريث (تمامًا مثل الإمبراطورية) وذلك نتيجة لفترة سياسية طويلة قامت على المصاهرة، وأن مختلف الممالك اتحدت مع الاحتفاظ بتباين كبير فيما يتعلق بالمميزات والقوانين، بل وبالنسبة للعملات أيضًا، تباين بدا واضحًا تمام الوضوح فى كل

ما له صلة بالموريسكيين. اختلفت خصائص مختلف جماعات الموريسكيين، ورثة المدجنين (القشتاليين، والغرناطيين، والأراغونيين، وأيضًا الفالنسيين) اختلافا غير عادى بالنسبة لمدى درجة الاندماج وسهولته، وبالنسبة لمدى الإلمام باللغة العربية، والكثافة السكانية، وأهمية المناطق التى كانوا يقيمون بها اقتصاديا، وكذلك بالنسبة للإجراءات التى اتخذها ملك أراغون وقشتاله تجاههم. خلال عهد الملوك الكاثوليك وعصر الملك كارلوس الخامس كانت مشكلة الموريسكيين مشكلة غرناطية وفالنسية أساسًا، واقترنت هذه المشكلة طوال القرن السادس عشر بالمشكلة التى أثيرت بسبب قراصنة الشمال الإفريقى، كما اقترنت أيضًا بمشكلة تحرش مسلمى غرب البحر المتوسط ببلدان جنوب شرق شبه الجزيرة، وما أثار ذلك من مخاوف، واقترنت أيضا بمشكلة المواجهة مع الإسلام الخارجى، الذى نادرًا ما كان يراه الإسبان المعاصرون فى معزل عن الداخلى، والذى كانت له علاقة بالصدام أو مواجهة الإمبراطورية العثمانية. كانت حرب غرناطة بمثابة بداية النهاية بالنسبة للمسلمين الإسبان وقد أثر ما جرى فى غرناطة على ما حدث بعد ذلك فى مناطق أخرى خاصة فالنسيا.

لما انتهت حرب غرناطة لوحظت تناقضات صارخة فى إبرام معاهدات الاستسلام. فهناك السماحة والتسامح تجاه دين الطرف

المهزوم، انطلاقًا من ضرورة وضع نهاية لحرب طويلة ومكلفة، بينما كان هناك تعسف شديد من جانب المجتمع "المسيحى القديم"، تلاحم مع فكر الملكية الإسبانية الحديث التى أخذت على عاتقها أن تتخذ من الدفاع عن المسيحية والعمل على نشرها مصدرًا للشرعية. ذلك التشدد المتصاعد، الذى أفرزته أزمة القرن الرابع عشر (والتى تجلت مظاهرها فى سلسلة من الاضطهادات والمذابح التى ارتكبت عام ١٣٩١ ضد اليهود)، زاد حدة فى أواخر القرن الخامس عشر بإنشاء محاكم التفتيش، وصدور لائحة نقاء الدم، وكذلك نتيجة لطغيان قيمة الشرف. ففى الوقت الذى أدخلت فيه محاكم التفتيش، وتم طرد اليهود، فإن معاهدات الاستسلام لا يمكن أن تعنى سوى أنها مجرد نقطة انطلاق زائفة. فمجرد إبرام تلك المعاهدات التى وقعها الملكان (الملك فرناندو والملكة إيسابيل) فى الوقت الذى تم فيه الاستيلاء على غرناطة، تسارعت أحداث التدهور فى غرناطة، حتى بلغت ذروتها باندلاع حركة التمرد فى ربض البيازين عام ١٥٠١، والتى تلاها صدور المرسوم الذى يقضى باعتناق مسلمى غرناطة المسيحية. وقد كان لهذا المرسوم سلسلة من ردود الفعل. من بين تلك التفاعلات التذرع بأن اتصال المتنصرين حديثًا برفاقهم القدامى فى الدين، قد يجعل اندماجهم فى الديانة المسيحية أمرًا صعبًا. فالقضية تتمثل فى أن المدجنين المقيمين فى المناطق التابعة لتاج قشتالة وجدوا أنفسهم

أمام خيارين بموجب المرسوم الصادر فى ١٢ فبراير ١٥٠٢، أما هذان الخياران فهما إما التنصر وإما الهجرة، إلا أن الهجرة كادت تكون ضربا من المستحيل بموجب الشروط الموضوعة. وبعد استيلاء قشتالة على نابارا Navarra عام ١٥١٢، تم تطبيق مرسوم ١٥٠٢ على المدجنين هناك.

بقى إذن، عندما اعتلى كارلوس الخامس العرش عام ١٥١٧، مسلمو أو مدجنو المناطق التابعة لتاج أراغون، ومن الواضح أنهم لم يكونوا مهيئين لتطبيق الإجراءات التى تم تنفيذها فى المناطق المجاورة. وتدخل حماتهم النبلاء لدى البلاط فى برشلونة عام ١٥٠٣ بهدف الحصول على ضمانات لصالح المدجنين، وفى عام ١٥١٧ اضطر كارلوس الخامس إلى أن يُكذب ما تردد حول قيامه بإعداد الترتيبات الخاصة بالطرد أو فرض التحول الدينى، وأقسم أنه لن يفرض ذلك بمرسوم. ولقد كان المفجر الذى أثار التوتر وأجج حدة العداء الشعبى ضد المسلمين (كانت الجماعات الفالنسية قد طلبت التصريح بحمل السلاح لمواجهة هجمات القراصنة، وقد صرح لها بذلك) ذلك التمرد الذى تزعمته الحركة النقابية المناهضة لطبقة السادة والنبلاء فى فالنسيا، ثم أُعلن التمرد ضد حكومة كارلوس الخامس فيما بعد. وخلال الفترة من عام ١٥١٢ إلى١٥٢٢ جعل أفراد الجماعات ضحاياهم المفضلة من المدجنين ثم اضطروهم إلى عملية

تعميد جماعية(*). وهيأت عملية التعميد هذه إجابة عن تساؤل حول أسباب الثورة . إن هجمات مسلمي شمال إفريقيا الذين كان الموريسكيون يعتبرون جواسيس لهم ، والحاجة إلى إيجاد كبش فداء أو مسئول عن داء الطاعون، وكان كبش الفداء هذا يتمثل في اللوطيين والأجانب والمسلمين. وكانت الثورة أيضًا شكلاً من أشكال مناهضة السادة (النبلاء)، لأن المدجنين كانوا مصدر دخل السادة. فقد كانت عمليات التعميد صورة من صور الإضرار بالسادة، وبالفعل، ما إن تم سحق حركة النقابيين حتى تصدى السادة لفكرة إلغاء عمليات التعميد القسرية.

ثمة محرك آخر يجب أن يوضع فى الاعتبار هو الاعتقاد بعودة المسيح، وهو اعتقاد ظل سائدًا على مدى القرن في شبه الجزيرة، فقد كان الأمل فى عودة المسيح ينطوى على وعد بمرحلة زمنية تغمرها السعادة، تسبق نهاية العالم، مرحلة يسود فيها السلام والعدل، يعتنق فيها الكفار جميعهم دينًا واحدًا. ويفترض فيها زوال الإسلام على وجه الخصوص.

انتشرت عقيدة عودة المسيح أيضًا بين المواطنين الموريسكيين

(*) كان الهدف من تعميد المسلمين جماعيا هو الإضرار بمصالح النبلاء، فعندما يتحول المسلم إلى المسيحية فلن يكون بحاجة إلى دفع ضرائب للنبلاء. (المراجع)

وكانت بمثابة عامل على قدر من الأهمية في حرب البُشَرَّات Alpujarras . وفي تلك الأثناء، في الوقت الذي كان الناس يترقبون فيه عودة المسيح، لعب انتشار نبوءات سان إيسيدورو San Isidoro بشأن ضياع إسبانيا ثم استعادتها من الإسلام دورًا محوريًا. استغل هذه النبوءات أيضًا جماعات قشتالة Comuneros De Castilla، وكان أفراد الجماعات يرون أن القضاء على السادة قد يساعد على نجاح مبدأ المساواة، وأن تعميد المدجنين يساعد على توحيد جميع المؤمنين تحت لواء الدين الحقيقي.

بعد انتهاء حركة التمرد، طرحت مشكلة مدى جدوى عمليات التعميد التي تزعمها أبناء الجماعات أنفسهم، وعلى الرغم من الموقف المعارض الذي اتخذه السادة (النبلاء)، وسلطات فالنسيا ، رأت لجنة تضم عددًا من رجال اللاهوت والقانونيين في اجتماعات عقدتها في مدريد خلال شهري فبراير ومارس، ورأسها الإمبراطور شخصيا، رأت في جلستها الأخيرة الموافقة على صحة التعميد.

الأمر كان يتعلق في الحقيقة بخطة الملك كارلوس والمفتش العام ألونسو منريكي Alonso Manrique قبيل اجتماع لجنة مدريد هذه، وذلك في ظل ظروف سياسية تميزت بإعادة ترسيخ وضع الدولة، في الوقت الذي تم فيه القضاء على الأزمات التي أثارها

الطائفيون والنقابيون. وأصدر البابا كلمينتي Climente السابع مرسومًا بابويا بعنوان اشتمل على مخطط لتنصير المدجنين وتعميدهم، كما تضمن تحرير الملك كارلوس الخامس من قسمه بعدم فرض التنصير القسري.

ولما توصلت اللجنة أولاً إلى إيجاد حل لمشكلة التعميد القسري، قامت بالتوفيق بين الكنيسة وبين الذين عادوا إلى اعتناق الإسلام، وأخيرًا أمرت بتنصير مدجني فالنسيا أولاً، ثم المدجنين المقيمين في المناطق التابعة لتاج أراغون، ولكنها حرصت على حماية مصالح السادة (النبلاء) بقدر الإمكان.أما الهجرة ، وهي البديل المطروح، فإنها كانت مستحيلة من الناحية العملية(*)، ولم يكن أمام المدجنين سوى حياة العبودية لو أرادوا الفكاك من التحول الديني.

ومع ذلك استطاع السادة الأراغونيون أن يحصلوا على بعض التيسيرات ، فبعد مفاوضات طويلة استمرت حتى شهر يناير عام ١٥٢٦، وبعد دفع مبلغ من المال قدره ٤٠٠٠٠ دوقية حصلوا على موافقة بعدم تدخل محكمة التفتيش، وعلى أن يحصلوا خلال السنوات العشر التالية على تصريح بمواصلة استخدام لغتهم وارتداء أزيائهم،

(*) كانت شروط الهجرة هي ألا يسمح للموريسكي ببيع أراضيه الزراعية ولا عقاراته، ولم يكن يسمح له كذلك بحمل نقود أو جواهر. من ناحية أخرى كان أصحاب السفن يريدون تحصيل أجرة السفر من الموريسكي ؛ لهذا كانت الهجرة مستحيلة من الناحية العملية. (المراجع)

وأن تكون لهم مقابر مختلفة، كما حصلوا على موافقة على زواج أبناء العمومة...إلخ.

تحققت بذلك وحدة دينية من الناحية النظرية، وذلك على حساب إثارة مشكلة موريسكية سوف يتبين مدى صعوبة إيجاد حل لها. فقد كان المسيحيون الجدد يفتقرون إلى التربية الدينية، وتنقصهم أى رغبة فى أن يكونوا مسيحيين. أضف إلى ذلك أنه فى حالة احتمال اندماجهم، فإنهم سوف يصطدمون برفض من جانب المجتمع المسيحى القديم، وبمصالح النبلاء. فاعتناق المسيحية لا يضمن لهم الاندماج الكامل داخل المجتمع القشتالى ولا يمكّنهم من الخروج من دائرة التهميش، ولذلك لم يكن لدى الموريسكيين ما يكفى من الحوافز التى تجعل منهم مسيحيين صالحين. لم يكفل الموقف المتشدد الذى اتخذته قطاعات من الكنيسة تأييدًا للتاج كسر تلك العقبات، ولا التغلب على الموقف السلبى الذى وقفه جانب كبير من رجال الكهنوت. كان موريسكيو أراغون أكثر تهاونًا، ولكن انفجرت ثورات فى فالنسيا فى الجنوب، فى سلسلة جبال بناغواثيل **Benaguacil** وبصفة خاصة فى سلسلة جبال إسبادان فى مقاطعة كاستيون ، حيث قامت حرب عصابات، تمكنت القوات النظامية من سحقها فى الأشهر الأخيرة من عام ١٥٢٦. وبانتهاء ذلك العام لم يبق مسلمون بشكل قانونى أو معترف بهم بكونهم مسلمين على الأراضى الإسبانية،

وعندئذ بدأت مرحلة تميزت بممارسات قهر مسيحية، تقابلها مقاومة موريسكية، إضافة إلى بدء مرحلة التنصير والتكيف مع الثقافة المسيحية التى استهدفت أقلية بقيت محصورة تمامًا على ما هى عليه.

تعليم الإنجيل والتنصير :

لم يبق فى شبه الجزيرة مسلمون يحملون اسم مسلمين اعتبارًا من عام ١٥٢٦، وبدأت مرحلة استمرت نحو ثلاثين عامًا ركزت فيها السلطات المسيحية جهدها الأساسى فى العمل على تثقيف أولئك الذين دخلوا المسيحية مؤخرًا وتنصيرهم. وقد لعبت تضاريس مملكة ليون الجغرافية، إضافة إلى جهود النبلاء التى استهدفت حماية المسلمين، دورها فى وضع عراقيل كبيرة عطلت دخول المبشرين وموظفى السلطة المسيحية، مما ساعد المسلمين على الاحتفاظ بنمط الحياة والثقافة التقليدية الخاصة بهم بأكبر قدر ممكن، إضافة إلى الحفاظ على إقامة شعائرهم الدينية. واحتفظت طوائف الموريسكيين بالتنظيم الهيكلى للجماعات كلما كان ذلك ممكنًا، بما فيها من الوكلاء الذين كانوا يتولون عمليات التفاوض مع ممثلى الكنيسة، أو النبلاء، أو البلديات. واعتبارًا من العقد الذى بدأ عام ١٥٦٠ كلف مجلس محاكم التفتيش وكلاءه فى الأراضى التابعة لتاج أراغون (حدث الشىء نفسه فى غرناطة منذ عام ١٥٢٩) أن يُحكِموا الرقابة

والممارسات القمعية على الفقهاء، وعلى من يذبح من القصابين طبقًا للشريعة الإسلامية، والقابلات الموريسكيات، وعلى الوجهاء فى الأحياء الخاصة بالمسلمين، أى كبار العائلات الموريسكية المهمة ، الذين كان لهم دور مهم فى تحقيق الترابط الدينى داخل الجماعة، أى أن الغرض من ذلك هو تفكيك أنظمة الجماعات القديمة. فلجأت تلك الجماعات إلى ممارسة أنشطتها سرا، وبحماية من جانب النبلاء الذين مثل بعضهم أمام محاكم التفتيش بتهمة التستر على الموريسكيين. وصل كارلوس الخامس إلى غرناطة فى شهر يونية (حزيران) من عام ١٥٢٦، وظل هناك حتى شهر سبتمبر ، واكتشف من خلال مقابلاته ممثلين سواء للمسيحيين أو الموريسكيين مدى حجم المشكلة وضخامتها، وما يكتنفها من تعقيدات. ولجمع أكبر قدر من المعلومات أمر بإجراء عملية استقصاء فى المنطقة، وكلف به غاسبار دى أبالوس وأنطونيو دى غيبارا، وكشف الاستقصاء عن وضع متردٍّ ، فالموريسكيون يقاسون من الجباية غير القانونية بصفة دائمة، كما يعانون من كل أشكال سوء المعاملة، ويتعرضون لأعمال السلب والنهب، كذلك تتعرض النساء إلى انتزاع الحجاب فى الشوارع... إلخ. وفى ظل تلك الظروف عقدت جمعية الكنيسة الملكية (نوفمبر – ديسمبر ١٥٢٦) اجتماعًا فى غرناطة، كان بمثابة المرجع الأساسى الذى يستعان به لاتخاذ قرارات من شأنها وضع نهاية

للانتهاكات التى يتعرض لها الموريسكيون، ووضـــع الخطــط التـــى تحقق عمليات التنصير. فى الوقت نفسه تم توسيع نطـــاق القـــوانين السابقة وتوحيدها للتصدى للثقافة الإسلامية، كما تقرر إدخال محكمة التفتيش.

كل ذلك تضمنته فتوى اضطلع بهـــا الـــدكتور غالنـــديث دى كارباخال وتتناول مـــا يلـــى : أولاً تحـــديد الطقـــوس والـــشعائر الموريسكية والتى ينبغى استئصالها. ثانيًا تحديد واجبـــات المطـــران والأحبار. ثالثًا الإعلان عن إدخال محكمـــة التفتـــيش فـــى مملكـــة غرناطة. رابعًا وخامسًا، توجيه الكهان والضباط غيـــر الكهنـــوتيين حتى لا يتعرض الموريسكيون للإهانة أو لعمليات السلب والنهب. أى أنه مزيج من استعمال اليد القوية والإجراءات القمعية، ومن إجراءات تكفل الحماية وتبدو رحيمة. وعمومًا، فإن ما تنطوى عليه الفتوى أن كل ما هو مخالف عن عالم المسيحى القديم فى الدين، أو فى العـــــادات، أو فى العقلية أو فى اللغة كان يقع تحت طائلة العقاب الصارم.

ولكى نستوضح الأمور بصورة أفضل فإننا نرجـــع إلى فتـــرة ما بعد الاستيلاء على غرناطة مباشرة، عندما شرع الراهب هرناندو دى تالابيرا، كبير أساقفة غرناطة فـــى القيـــام بتنـــصير المـــسلمين ووعظهم، لتحقيق الاندماج شيئًا فشيئًا، حيث قام بإعداد كهنة يتحدثون

بالعربية، ويظهرون بالمظهر المثالى الذى يتناسب مع وضعهم. أبدى تالابيرا احترامًا لعادات المسلمين واحتفالاتهم، مثل حفلات الـسمبرا zambra (حفلات غنائية وموسيقية)، وبل وصرح بها فى احتفـالات عيد القربان. وأما قيام ثيسنيروس باتخاذ سلـسلة مـن الإجـراءات المتشددة والسريعة فقد كان له علاقة ببعض الحيازات الملكية وبجدل دار فى إسبانيا فى ذلك الحين بشأن الموريسكيين بل وبـالهنود فـى أمريكا أيضًا. الأمر كان يتعلق بإيضاح إلى أى مدى كان الدين مجرد عقيدة، بمعنى أنه كان عبارة عن معتقدات وطقـوس، بمقـدورها أن تفرض نفسها على غيرها من العادات الـصحية والغذائيـة، وعلـى طريقة أخرى للملبس، أو على لغة أخرى، أو على هيكل عائلى آخر؛ أى أن الدين كان أكثر من هذا، وأن التحول الدينى كان يعنى تحـولاً كاملاً فى كل السمات الثقافية لمن تحول عن دينه إلى دين آخر.

بدأ الموقف المسيحى يجـنح إلى القضـاء نهـائيا على كـل ما يتعلق بالثقافة الإسلامية اعتبارًا من أوائل القـرن، وذهـب إلـى التعميم الشامل للغة الإسبانية، وإلى التنصير الكامل. ويمكن تـأريخ المراحل المهمة فى مسيرة هذا التطور، وهـى لا تتعلـق بالكنيـسة وبالأسقف تالابيرا وحدهما، بل تتعلق أيضًا بالجيل الأول من الغـزاة والنبلاء الغرناطيين. كان أول ماركيز فى مونديخار **Mondejar** قـد مات عام ١٥١٢. ومنذ ذلك الحين أخذ وضع نـبلاء غرناطـة فـى

التراجع أمام المسئولين بمحكمة غرناطة، وكان هؤلاء يتصدون للدفاع عن مصالح تختلف عن مصالح النبلاء (خاصة فيما يتعلق بتوحيد أسلوب تطبيق القانون والتشدد فى تطبيقه). لم يكترث هؤلاء بمدى تمسك الموريسكيين بعاداتهم أو بمليسهم أو باللغة التى يتعاملون بها، فقد بدوا أكثر مرونة، وغالبًا ما كانوا يعتبرون الإجراءات التى كان يتخذها المسئولون بالمحكمة والكهنة، إنما هى إجراءات غير مناسبة، بل إجراءات هزيلة. وكانوا يؤيدون حقيقة أولئك الذين كانوا يعتبرون أن طريقة الملبس التى يتميز بها الموريسكيون لا علاقة لها بالدين إلا أن كارلوس الخامس بدا فى غرناطة فى عام ١٥٢٦ أكثر تساهلاً، وتوصل الموريسكيون إلى اتفاق مع الملك يقضى بالآتى : دفع مبلغ كبير من المال مقدمًا، استطاعوا به تعطيل تنفيذ الإجراءات الخاصة بمنع اللغة والتوقف عن ممارسة العادات، كما توصلوا إلى عدم تعرض محاكم التفتيش لهم بمصادرة ممتلكاتهم. وتسبب التكاسل فى أن تكون كل الإجراءات مجرد حبر على ورق.

جاءت بعد ذلك مرحلة سادها هدوء نسبى ؛ فقد تعايش الموريسكيون والمسيحيون القدامى على مدى العقود الثلاثة التالية فى ظل القواعد والأسس التى وضعت عام ١٥٢٦، وبدا اتجاه المسيحيين ينحو إلى الاندماج والتكيف أكثر منه إلى القمع. ومع ذلك لم تطبق جميع الاتفاقات التى أبرمت فى عام ١٥٢٦، وذلك بسبب دأب

محكمة التفتيش على مطاردة الموريسكيين فـــى فالنـــسيا منـــذ عـــام ١٥٢٨، وفى غرناطة عام ١٥٢٩، وبذلك كانت حملات التنصير هى السمة المميزة لتلك الفترة.

وضعت المجالس النيابية الأسس فى قشتالة على النحو التالى : فى سيغوبيا **Segovia** عام ١٥٢٢، وفى بلد الوليـــد **valladolid** عـــام ١٥٣٧ ، وفى أراغون ومـــانثون **Aragon y Manzon** عـــام ١٥٧٣. وعلى الرغم من أن الضوابط اقتصرت على حسن النوايا نظريًا، ولم تخرج إلى حيز التنفيذ (الزيارات الرعوية للكنائس القرويـــة " مـــثلاً) بذلت جهود تبـــشيرية وتربويـــة كبيـــرة بـــلا توقـــف، اســـتهدفت الموريسكيين. خصصت جلسات مجمـــع وادى آش **Gudix** الكنـــسية، التى دعا إليها الأسقف مارتين دى أيالا **Martin de Ayala**، جهودهـــا لقضية الموريسكيين. ثم أصدرت قرارات من شأنها أن تقضى علـــى الممارسات الثقافية، وتناولت مستويات التربيـــة الدينيـــة بالتحديـــد، والطرق التى تتبعها، كما تناولت أيضًا نشاط الكهان... إلخ وأيـــضًا أُنشئت مدارس خاصة بالموريسكيين، وأمر أسقف غواديكس، مارتين دى أيالا، بوضع "منهج للعقيدة المسيحية باللغة العربيـــة"(*). كانـــت الجهود كبيرة ومستمرة، وعينت السياسة الملكية متخصصين حقيقيين

(*) لدينا نسخة من هذا الكتاب وهو مترجم بشكل حرفى يدعو إلى الإضحاك. (المراجع)

فى القضية الموريسكية لهذا الغرض، جميعهم من كبار رجال الـــدين المتميزين مثل أنطونيو دى غيبـــارا **Antonio de Guevara** وغاســـبار دى أبالوس **Gaspar de Avalos**، ومارتين دى أيالا **Martin de Ayala** السالف ذكره، وكان هــؤلاء هم القـــائمون على ســياسة الانـــدماج أو التكيف، وقاموا فيما بعد بدور لا يستهان به فى ترنتو **Trento**.

وفى الفترة نفسها قامت فى فالنسيا خطة تبـــشيرية اســـتهدفت الموريسكيين، وذلك بتشجيع من جانب أنطونيو راميريث دى هارو، وانطلقت تلك الخطة عن طريق شبكة من كنائس القرى. وهذه الخطة كانت أكثر اعتدالاً من الخطة التى وضعت للغرنـــاطيين. ونجحـــت الاجتماعات التى عقدها مجلس نواب فالنسيا فـــى أن تحـــصل مـــن كارلوس الخامس على امتيازات واختصاصات مختلفة، من شأنها أن تحد من عمليات مصادرة الملكيات، والعقوبات التى كانت تفرضـــها محكمة التفتيش.

تحدد دور محكمة التفتيش تجاه الموريسكيين بصفة خاصة فى مجلسى طليطلة ومدريد عامى ١٥٣٩ و ١٥٤٢، وقد عقـــد مجلـــس مدريد على أساس ما جاء فى مجلس فالنسيا النيابى فى العام نفـــسه. وقد حصل راميريث دى هارو فى ذلك المجلس على مهلة لا تتـــدخل خلالها محكمة التفتيش، بلغت ستة عشر عامًا، يجرى خلالها تربيـــة وتوجيه الموريسكيين. وفى طليطلة تم بحـــث مطالـــب موريـــسكيى

غرناطة، التى طالبوا فيها بالحد من مسلك محكمة التفتيش، علـــى أن تجرى محاكماتهم على إقامة الاحتفالات الدينية الرئيسية، لا بـــسبب الممارسات الثقافية، ورفض المجلس الطلـــب الخـــاص بالحـــد مـــن الإجراءات، باستثناء متابعة حفلات السمبرا، طالما لم تتضمن الدعاء لمحمد.

وعمومًا جنح الإمبراطور خلال تلك الفترة، وتحـــت ضـــغط المشاكل فى ألمانيا، وبسبب احتياجه إلى الأموال، إلى السماح بقـــسط من التنازل لفترة معينة، وكان ذلك يتطلب فى الغالب تعويضًا ماليـــا. وهكذا، وبالإضافة إلى التنازلات التى منحت للفالنسيين، كان مؤيـــدًا لإقرار المطالب التى تقدم بها ثانية ماركيز مونديخار **Mondejar** عام ١٥٤٣ فى غرناطة، ووافق أيضًا على إصدار العفو عـــن الجـــرائم دون حاجة إلى مصالحة ، وكان لهذا الأمر أهميته، لأنه كـــان مـــن السائد أنه فى حالة إتمام المصالحة مع الموريسكيين بعـــد ارتكـــابهم لجريمة ممارسة الشعائر الإسلامية، ثـــم محـــاكمتهم أمـــام محكمـــة التفتيش، فإنهم يعتبرون من محترفى الإجرام إذا ضبطوا فى جريمـــة مماثلة ؛ وبالتالى يمكن تنفيذ حكم الإعدام فيهم. أيضًا منح مهلة مداها خمسة وعشرون عامًا لا تصادر فيها الممتلكـــات ولا تطبـــق فيهـــا عقوبات نقدية، مقابل دفع مبلغ مادى، وقد ووجه ذلك بمقاومـــة مـــن جانب محكمة التفتيش ومن جانب البابا.

ومع ذلك، فإن العناد الذى كانت تصطدم به كلتا الطائفتين والصراع على المصالح التى كانت وراء مختلف أجهزة السلطة (الكنيسة، والبابا، والنبلاء، والتاج) كل ذلك كان يتجه إلى أن يطفو على السطح عندما تسنح أدنى فرصة. مثال لذلك تمثل فى اجتماع عقد فى طليطلة، خلال شهرى فبراير ومارس عام ١٥٣٨، لدراسة مطالب الموريسكيين فى غرناطة من محكمة التفتيش. ولم يحصل هؤلاء من مطالبهم الكثيرة سوى على التمييز بين المهرجانات أو الاحتفالات الإسلامية واليهودية. (فقد كانت التهم توجه دون تمييز)، كما صرحوا بحفلات السمبرا. لم تتوفر الرغبة فى منح الأقلية الموريسكية أى تنازلات، وكان كل من يتجرأ على الدفاع عنهم، يواجه بمعاملة تخلو من أى اعتبارات مثل ما حدث لماركيز مونديخار **Mondejar** شخصيا .

اتسمت الفترة التى بدأت عام ١٥٢٦ بحالة من التوازن الصعب وغير المستقر، حالة من الوضع الراهن تم كسرها فى أعوام ١٥٥٥-١٥٦٨، لما لوحظ أن الفجوة التى كانت تفصل بين الطائفتين، على الرغم من سياسة الاندماج، وعلى الرغم من المبالغ التى كان يدفعها الموريسكيون لكى يتركوا فى أمان، قد ازدادت اتساعًا. أثار ذلك الفشل الأحقاد بين السلطات المسيحية، وأفرز إحساسًا بأن الجهد الذى بذل كان هباء، وبالتالى يتعين اتخاذ إجراءات

أكثر قمعية. وانتهت فترة التسامح النسبى خلال فترة ما بعد عام ١٥٢٦ بوصول فيليبى الثانى إلى العرش عـــام ١٥٥٥ تقريبًـــا، وبتــصاعد السيطرة الإسلامية على البحر المتوسط.

القمع والطرد :

أصدر فيليبى الثانى فى عام ١٥٦٧ مرسومًا تــضمن اتخـــاذ إجراءات قمعية، استمرت وقتا طويلاً، كما رأينـــا ، يحظـــر علـــى الموريسكيين فى غرناطة استخدام اللغة العربية، حـــديثًا أو كتابـــة، ويمنع تداول الكتب أو الوثائق المحررة بالعربية، أيا كان محتواهـــا. ويحظر عليهم ارتداء ملابـــسهم التقليديـــة ، "ومـــا يـــدعى باللبـــاس الموريسكى"، كما يحظر على النســـاء تغطـــية جـــزء من الوجـــه، ولا يستخدمن الحناء فى نقش الأيدى أو الأقدام، أو فى صبغ الشعر، ويحظر عزف الموسيقى الموريـــسكية فـــى حفـــلات عقـــد القـــران والزفاف. أيضًا حرم عليهم استخدام الحمامات، أو اســـتعمال أســـماء وألقاب عربية، وصدرت الأوامر بأن يترك الموريـــسكيون أبـــواب دورهم مفتوحة، إضافة إلى منعهم من تملك العبيد. وقد أثـــار ذلـــك ذهولاً كبيرًا فى غرناطة.

أدى هذا المرسوم إلى ظهور نص اكتسب أهمية غير عاديـــة، تمثل فى عريضة قدمها النبيل الموريسكى نونييث مولاى إلى محكمة

غرناطة أكد فيها بالحجج أن اللباس الموريسكى لا يرمز إلى الـــدين، ولكنه شكل من أشكال التنوع أو السمات الإقليمية الخاصة بالمنطقة، إذ يختلف اللباس الغرناطى عن اللباس القـــشتالى أو الفالنـــسى. وأن العربية لا تعنى الإسلام، لأن المسيحيين فى الشرق يتحدثون العربية، وأن وضع الغرناطيين اللغوى، إنما هو علامة تمييز إقليمية شـــأنهم فى ذلك شأن القطالونيين أو الجليقيين **Gallegos**، فهم يتحدثون بلغـــة مختلفة دون أن يكون لهذا علاقة بالعقيدة. إذن كانت هذه محاولة من جانبه، أراد أن يفصل فيها تلك المعالم الثقافية الغرناطية، عن الهوية الدينية، لكى يجمع الموريسكيين فى هوية إقليميـــة لا تتنـــاقض مـــع المســـيحية على الإطـــلاق، وأراد أن يوضـــح أيضًا أن الغرناطيين لم يكونوا متفردين، لأن أبعاد التباين واضحة فى اللغات، أو الأزياء، أو العادات بين مختلـــف أقـــاليم إســـبانيا، وشـــدد كثيـــرًا علـــى أن الموريسكيين وعاداتهم "ينتمون إلى الأرض". وأشار إلى أنـــه مـــن الصعوبة بمكان تغيير الاسم على وجه الخصوص، لأن ذلـك يعنـــى ضياع الأسر، والأنساب، أحد أركان الهويـــة الموريـــسكية، وكـــذلك الارتباط بالجماعة. وبمنع اللغة أيـــضًا ســـوف تـــضيع الوصـــايا، ومحررات الأراضى، والعقود. فهل يتساوى الجميع بدون نسب وبلا ميراث أو عبيد؟ هكذا سجل النبيل الموريسكى احتجاجـــه. وإن هـــذا المرسوم فى مجتمع معروف بتعدد الطبقـــات، كـــالمجتمع الإســـبانى

المعاصر، من شأنه أن يحكم على الموريسكيين بالتهميش وجعلهم فى أدنى طبقات المجتمع إضافة إلى محو سماتهم الثقافية الخاصة وإلى الأبد(*) . إلا أن أحدًا لم يعره أى اهتمام.

كان ذلك المرسوم بمثابة الشرارة التى أججت نيران حرب البشرات فى عام ١٥٧٨، ذلك الإضراب المسلح الذى قام به الموريسكيون فى الجبال من غرناطة إلى المرية، أدى إلى حرب أهلية غاية فى العنف بين كلا الطرفين، استمرت طوال عامين. وبات من الضرورى أن يتدخل جيش السيد خوان دى أوستريا لكى يقضى على ذلك التمرد، وانتهى الأمر فى أواخر عام ١٥٧٠ إلى إقصاء جميع موريسكيي غرناطة إلى قشتالة. وأسفرت عملية الإقصاء تلك عن سقوط أعداد كبيرة من الموتى، نظرًا لتنفيذها فى أسوأ ظروف جوية من شتاء (١٥٧٠-١٥٧١) ضد سكان معدمين أنهكتهم حرب عامين متواصلين.

تشتت موريسكيو غرناطة فى مجموعات صغيرة، فى أراضى قشتالة، والتقوا بسكان من "الموريسكيين القدامى" وهم أقل إثارة للشغب، ووصلوا إلى مرحلة متقدمة من الاندماج والتآلف مع المجتمع المسيحى والقشتالى. وأسفر التقاء الموريسكيين الغرناطيين

(*) النص "الكامل" لمذكرة نونييث مولاى موجود فى كتاب مرثيديس غارثيا أرينال "الموريسكيون الأندلسيون" ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، المشروع القومى للترجمة ، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣ . (المراجع)

بالموريسكيين القدامى عن صراعات كبيرة، أضافت إلى المشكلة الدينية مشكلة اجتماعية، ترتبت على قدوم جماعات محطمة ومعدمة تمامًا، كانت غريبة بل ونذيرًا يهدد القشتاليين. أدرك الموريسكيون القدامى أنهم يحيط بهم ذلك الرفض، وتعرضوا لموجة من قهر محكمة التفتيش اعتبارًا من عام ١٥٧٠. لجأت محكمة التفتيش إلى استخدام أشد وسائل العنف ضد الموريسكيين طوال النصف الثانى من القرن السادس عشر وخلال سنوات ما قبل الطرد . مارست قهرًا لم يستطع أحد الفكاك منه فى أى مكان، فهى لم تستهدف وأد الهرطقة فحسب، بل استهدفت تفتيت الصلات العائلية، وكسر تلاحم الجماعات. تراوحت أحكام محكمة التفتيش على الموريسكيين (فيما عدا نسبة ضئيلة جدا ألقى بها فى المحرقة) ما بين الغرامات المادية ومصادرة الممتلكات. وكانت عمليات الإبلاغ التى كان يدلى بها المتهمون تحت وطأة التعذيب عن ذويهم وجيرانهم، وكذلك عمليات توقيف طبقة الصفوة، إضافة إلى الأوضاع الاقتصادية المتردية، مع حالات الترويع التى أثارتها محكمة التفتيش، كل ذلك كان من الأسباب الرهيبة والمدمرة للجماعات الموريسكية.

وفضلاً عن ذلك، فإننا كنا فى أسوأ سنوات المواجهة مع الأتراك، حيث يتطابق ما يشكله هؤلاء من تهديد مع ما يشكله الموريسكيون، أو بالأحرى ما يشكله الغرناطيون والفالنسيون. فقد صدرت أوامر فى عام ١٥٧٥ بألا يصرح للموريسكيين فى فالنسيا،

بحمل أى نوع من أنواع السلاح. وكانت عمليات التحرش التى كان يقوم بها قراصنة الشمال الإفريقى على السواحل الشرقية تشغل كلاً من السلطات والسكان المسيحيين المحليين، وكان هؤلاء القراصنة يسهلون للموريسكيين عمليات الهروب، مقابل التواطؤ معهم لإرشادهم إلى منافذ ينفذون منها.

اندلعت حرب فى أراغون مع الموريسكيين (عمال الأراضى المنخفضة من شاطئ نهر الإبرو، عام ١٥٨٥) وبين الرعاة المسيحيين فى الجبال. وكان الموريسكيون قد أجروا اتصالات وتحالفات مع البروتستانت فى إقليم بيرن **Bearn** الفرنسى. ازداد ذلك الوضع تدهورًا وتأججت الحرب نتيجة تعالى أصوات جماعات من الخبراء بالشئون العامة وهم من نسميهم فى أيامنا هذه بالقوميين المتطرفين.

بدأت فى أواخر عقد ١٥٨٠ مناقشات حول إمكانية اتخاذ قرار بشأن طرد الموريسكيين فى إطار جلسات مختلف المجالس واللجان. فقد كان الخوف والغضب قد انعكسا على سلسلة من الأسباب والذرائع بمشروعية ذلك الإجراء الذى ما زالت هناك عشرون سنة أمامه حتى يتم تنفيذه، وهذه الذرائع والأسباب هى : أن الموريسكيين غير قابلين للتكيف، وأنهم يكرهون كل ما هو مسيحى، وأنهم لم يدينوا بالولاء للملك وإنما يتحالفون مع الأتراك ومسلمى شمال إفريقيا، وبالتالى فإنهم يشكلون خطرًا على توازن المجتمع

المسيحى، وأنهم لن يقبلوا التكيف مع العادات وأسلوب الحياة الذى يتميز به المجتمع المسيحى، ومع ذلك كان عدد كبير من موريسكيي القشتاليين، وإكستريمادورا، ومرسيه، بل وفى أراغون، وحتى غرناطة، قد تبلور وتكيف تمامًا.

كان موضوع الطرد قد تم طرحه ومناقشته باعتباره احتمالاً ممكنًا، فى مجلس الدولة فى لشبونة، وذلك فى عام ١٥٨٢. كان مجرد فكرة، احتاج نضوجها لفترة طويلة. ولقد صدر أول مرسوم بالطرد عام ١٦٠٩، وتم تطبيقه بالطبع على موريسكيي فالنسيا. وخلال الفترة من ١٦١٠ إلى ١٦١٤، تم طرد جميع الموريسكيين من شبه الجزيرة، كان آخرهم موريسيكو ريكوتي **Ricote** ومرسية، وكانوا قد اعتنقوا المسيحية طواعية من قبل بموجب مرسوم عام ١٥٠٢ الذى أصدره الملكان الكاثوليكيان (فرناندو وإيسابيل) . ويقدر عدد المطرودين بنحو ٣٠٠٠٠٠ موريسكى، انتهى المطاف بعدد كبير منهم فى بلدان جنوب البحر المتوسط وهؤلاء هم موضوع الفصل القادم.

مقاومة طمس الهوية :

سبق أن أشرنا إلى مقاومة الموريسكيين، والتى تجلت فى شكل ثورة مسلحة وفى عمليات الهجرة. وهنا سوف أركز على صورة

أخرى من صور المقاومة إزاء الضغوط التى تمثلت فـــى عمليـــات التبشير والتنصير ، على التمسك بالملامح الثقافية والدينية الإسلامية.

فقد ظلت أعداد كبيرة من الموريسكيين تمارس شعائر الـــدين الإسلامى خفية، وهو ما عرف بالإسلام الخفى. فقد كـــان يتـــردد أن الموريسكيين يؤمنون بشرعية التمسك بالدين الإســـلامى ســـرا، وإن كانوا يؤدون الشعائر المسيحية ظاهريا، وذلك استنادًا إلى مبدأ "التقية" الإسلامى الذى يجيز إخفاء العقيدة فـــى حالـــة التعـــرض لـــضغوط خارجية ، فقد اضطرت جماعات دينية أخرى فى إسبانيا تحت وطأة محاكم التفتيش إلى إخفاء عقائدها وإلى تشريع ذلـــك، مثـــل اليهـــود المتنـــصرين، والبروتـــستانت والنـــورانيين iluminados وحتـــى الإيراسميين erasmistas .

ولكن تلك السرية أثارت بالفعل مشاكل خلقية وقانونية. ونرجع هنا إلى وثائق توفرت لدينا، وتتضمن استشارات طرحهـــا مـــدجنون وموريسكيون، حول إمكانية الحياة فى ظل الظروف الجديـــدة التـــى تفرضها السلطة المسيحية، فى الوقت الذى ينتمون فيه إلـــى مجتمـــع المؤمنين. وقد طرحت هذه المعضلة نفسها أيضًا بالنسبة للمهـــاجرين إلى شمال إفريقيا الذين كانوا يرغبون فى العودة إلى شبه الجزيـــرة، بعد أن تملكهم الإحســـاس بالعـــجز عن التكيـــف. فى عـــام ١٤٨٤،

أى قبل الاستيلاء كلية على غرناطة، قامت جماعة من المسلمين ممن سبق أن هاجروا إلى المغرب، واكتشفوا أن الوضع هناك غير موات لهم، بطرح استشارة شرعية حول إمكانية العودة إلى إسبانيا، من وجهة النظر الدينية، وبعد ذلك بقليل أى فى عام ١٤٩٥، طرحت جماعة أخرى من المسلمين ممن كانوا يرغبون فى البقاء بالمناطق التى استولى عليها المسيحيون مؤخرًا، سؤالاً مماثلاً. وجاءت الإجابة عن كلا السؤالين ضمن فتويين أفتى بهما مفتى مدينة فاس المغربية أحمد الونشريسى المتوفى عام ١٥٠٨، وكان متشددًا جدا مع الأندلسيين : "البقاء فى بلد استولى عليه الكفار محرم بحكم الدين، كتحريم أكل الميتة، والدم، ولحم الخنزير".

وبعد بضعة أعوام، أصدر مفتى مدينة وهران الجزائرية فتوى أخرى إلى المسلمين الإسبان الذين اعتنقوا الدين المسيحى بمرسوم . كانت هذه الفتوى على عكس ما سبقها ترمى إلى تهدئة أولئك الذين أصبحوا فى مثل ذلك الوضع الحرج ومواساتهم، حضهم فيها على أن يكتموا إسلامهم فى القلوب، وألا يعلموا أطفالهم الدين الإسلامى حتى يبلغوا سن الحلم، ويبلغوا من النضج ما يجعلهم قادرين على كتمان ما يبطنون(*).

(*) انظر النص الكامل لفتوى بوجمعة مفتى وهران فى كتاب غارثيا أرينال "الموريسكيون الأندلسيون" ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣ . (المراجع)

وأصدر علماء المذاهب الأربعة الإسلامية فى القاهرة عام ١٥٠٠ تقريبًا أربع فتاوى حول أوضاع المسلمين الذين يعيشون تحت سلطان حكومة مسيحية فى إسبانيا. وفيما يبدو أن تلك الفتاوى صدرت بناء على طلب بعض الموريسكيين الفالنسيين لدى مرورهم بالقاهرة، وهم فى طريقهم إلى مكة لتأدية فريضة الحج. ونصت هذه الفتاوى على وجوب هجرة المسلمين فى أقرب فرصة ممكنة. فلا يجوز للمسلمين الإقامة بين الكفار، ولا ينبغى أن يقسموا قسم الولاء لسلطانهم؛ فإقامة المسلمين بين الكفار لا تمكنهم من أداء بعض الشعائر الإسلامية الأساسية. أى أن الإقامة بين الكفار شأنها شأن أكل الميتة والدم ولحم الخنزير ، والاتصال بالكفار فى حد ذاته إنما هو مصدر للعدوى. ولما وصل الموريسكيون المطرودون إلى شمال إفريقيا فى القرن السابع عشر، شعر السكان المحليون بغضاضة فى اعتبارهم مسلمين.

كان مستوى الثقافة العربية الإسلامية لدى مختلف الجماعات الموريسكية متباينًا، كما هو الحال بالنسبة للمدجنين، بين منطقة وأخرى، ومن عصر إلى عصر . فالمستوى فى فالنسيا غيره فى قشتالة، وبين أبناء جيل ما بعد عام ١٥٠٢، يختلف عما كان عليه من سبقوا عملية الطرد التى تمت عام ١٦١٠. فالموريسكيون الفالنسيون والغرناطيون كانوا يتحدثون العربية، وكانوا يخضعون لعمليات الختان، أما بالنسبة للقشتاليين فكان حالهم غير ذلك، وبالنسبة

للغرناطيين الذين أبعدوا إلى قشتالة كان يتعين عليهم التوقف عن استخدام اللغة العربية وعن إجراء عمليات الختان بعد جيل واحد. علاوة على ذلك يتعين أن نضع فى اعتبارنا أن القطاع الأكبر من المصادر المتوفرة لدينا والتى نتعرف من خلالها على معركة مدى الاحتفاظ بالإسلام بين الموريسكيين، فهى ما أسماه ماركيث بيانويبا Marques Villanueva "بالمصادر المسمومة" : وثائق محاكم التفتيش، على سبيل المثال، أو تقارير ومذكرات أولئك الذين كانوا يبررون عمليات طرد الموريسكيين(*)... إلخ.

كانت محكمة التفتيش، إذا أحسنا الظن بنواياها وأساليبها، تحاكم الموريسكيين المشتبه بهم، أو من كان يثبت أنه من التيار الإسلامى "فقط"، وكانت تقدم تفصيلاً للممارسات الدينية، والصلوات، والعقائد، والثقافة، إضافة إلى نوايا الموريسكيين الذين كانوا يمثلون للمحاكمة. لقد ذكرت تلك الوثائق (إضافة إلى مصادر أخرى سوف نتعرض لها فيما بعد، وخاصة الأدب الألخميادو Aljamiado) أن قطاعًا كبيرًا من السكان الموريسكيين كان يتمسك بالممارسات الإسلامية (بما فيها ممارسات كان يصعب أداؤها فى تلك الظروف، مثل الحج إلى مكة) فى إطار كيان أسرى وجماعى، وكانت تحرص على رعاية الجماعات. فقد أكد الكتاب المؤيدون لسياسة القمع

(*) انظر كتابه "القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى" ترجمة عائشة سويلم، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥ . (المراجع)

المتطرفة والطرد، أن جميع الموريسكيين لا يزالون مسلمين كما كانوا قبل التنصير، بل وأضافوا أيضًا بعض الحجج (مثل أنهم كانوا أسرع تكاثرًا) وهى حجة لم تثبت عن طريق مصادر أخرى، لكنها أصبحت معلومة متداولة.

لم يترك الموريسكيون المتأسبنون والمتنصرون إلا دلائل نادرة للغاية فى الوثائق، ولهذا يسهل بموجبها تكوين فكرة مشوشة عن الموريسكى "غير المتكيف" والمسلم المتمسك على الرغم من كل شىء. فالحقيقة لابد أن تكون شديدة التعقيد، كما سوف يتبين لنا عندما كان لزامًا على المطرودين أن يندمجوا فى المجتمعات الإسلامية بالشمال الإفريقى. كانت مقاومتهم ثقافية، واجتماعية، فضلاً عن كونها دينية، ساعد عليها رفض التكيف مع مجتمع الأغلبية الذى دأب بدوره على أن يمارس ضدهم سياسة اتسمت بالتمييز والتهميش والمطاردة. فى ذلك الوقت كان يتعين عليهم أن يتعايشوا مع اللغة، وأن يحاكوا العادات والتقاليد السائدة فى ذلك المجتمع، لكى لا يفطن أحد لوجودهم(*).

لقد انغمس الموريسكيون، مثلهم مثل المدجنين، فى غمار عملية دفع ثقافى، من شأنها أن تجعل منهم نموذجًا مغايرًا لأجدادهم

(*) لا أدرى هل تتبنى غارثيا أرينال هنا الرأى القائل بأن الموريسكيين تعرضوا لعمليتى أقلمة ثقافية إحداهما فى إسبانيا والأخرى فى شمال إفريقيا؟ هذا الرأى تقول به لوثى لوبيث بارالت، وقد عارضنا هذه النظرية تمامًا. انظر : د. جمال عبد الرحمن "نص حول الجنس الموريسكى من تونس.." المجلة التاريخية المغاربية ، العدد ٧٧ - ٧٨ ، مايو ١٩٩٥ . (المراجع)

الأندلسيين. هذه العملية التثقيفية لا ينبغى أن نفسرها استشهادًا بمعالم الثقافة الأندلسية، أو الثقافة الإسبانية، ولا أن نعتبرها بالتالى وكأنها انهيار أو تدهور، بل باعتبارها صورة من صور المعايشة الحضارية فى التأصيل قادرة على دمج عناصر من كلتا الحضارتين، بما يفرز شيئًا جديدًا ومغايرًا.

وربما تمثل أوضح مثال لذلك التعايش أو التكامل، فى الأدب الألخميادو **alajamiada** ، وهو أدب كتب باللغة الرومانثية (الإسبانية) بحروف عربية، تركزت فيه الألفاظ والمفاهيم الدينية العربية بشكل عام، وكذلك فقرات كاملة من القرآن. أخذت العجمية من العربية أيضًا البناء التركيبى، والنمطى، والمعجمى، وما يتعلق بالمدلولات . إنها لغة خاصة، البديل الإسلامى للغة الإسبانية. والأدب الالخميادو أدب ذو طابع تعليمى، يغلب على موضوعاته الطابع الدينى والتشريعى، ويستهدف نشر أسس الشريعة والعقيدة الإسلامية والمحافظة عليها بين الموريسكيين، كما يتناول تاريخ أبطال من التاريخ الإسلامى، وحكايات حماسية ترجع إلى فجر الإسلام، إضافة إلى قصص الأنبياء... إلخ.

أى أنه أدب يمكن أن نطلق عليه اسم "التاريخ المقدس"، وتضمن إلى جانب هذه الموضوعات، موضوعات عن الطب

والسحر والنبوءات وأقوال ومناهج تربوية وخطط مسارية، أى توجيهات تحض على الهرب من إسبانيا. وتضمن أيضًا حكايات مثل قصة غراميات باريس وديانا المستوحاة من الأدب الإسبانى المعاصر فى ذلك الحين، وكان يعرفها الموريسكيون. ولما طرد الموريسكيون إلى شمال إفريقيا توقفوا عن الكتابة "بالألخميادو" ولكنهم احتفظوا بآدابهم الخاصة باللغة الإسبانية، اللغة التى كتبوا بها رسائل ذات طابع دينى، وأعمالا أدبية يتجلى فيها التأثير الإسبانى، ومقالات دينية ساعدت على عودة الموريسكيين المطرودين إلى الإسلام. وقد ترجم الموريسكيون المطردون كتبًا إسبانية إلى اللغة العربية ، منها على سبيل المثال كتاب عن المدفعية(*)، وموضوعات تقنية حظيت باهتمام البلاد المضيفة.

ثمة مثال آخر مهم للمعايشة، هو ما يسمى بإنجيل القديس برنابا، وهو إنجيل مختلق كتبه موريسكيون ، ويتناول تصحيحًا لرسالة المسيح طبقًا للمفاهيم الإسلامية، والتى تتركز حول صفته الإلهية، وتؤكد أن محمدًا هو المسيح المخلص الذى تحدثت عنه الكتب المقدسة. وفى الخط نفسه ، ولكن بشكل أكثر شهرة وأهمية لما كان له من ردود فعل كبيرة، كان موضوع الكتب الرصاصية.

(*) هو كتاب "العز والمنافع للمجاهدين فى سبيل الله بالمدافع" ترجمة الموريسكى أحمد بن قاسم الحجرى. (المراجع)

ففى عام ١٥٨٨ ترتب على انهيار مئذنة المسجد القديم فى غرناطة، الكشف عن رق قديم من الجلد مكتوب عليه باللغة العربية، وتبع ذلك الكشف عن مجموعة من الألواح الرصاصية بعد بضع سنوات منقوش عليها بحروف عربية غريبة، إضافة إلى اكتشاف بعض رفات القديسين. لقد كان اكتشاف وثائق هذا الكشف المزعوم القديمة، مجرد عملية تزييف قام بها مثقفو الموريسكيين ؛ فهى تثبت أن عربًا كانوا موجودين فى غرناطة فى زمن الحواريين، وأنهم اعتنقوا المسيحية حقًا وفعلاً على يد سانتياغو Santiago شخصيا، وعلى أيدى تلاميذه.

لعل الهدف الواضح من عملية التزييف يتمثل فى تجنب الطرد، خاصة أن تنفيذه بات وشيكًا، وذلك عن طريق إبطال مفهوم "المسيحيين الجدد"، لأن الموريسكيين كان يمكن أن يكونوا أقدم فى المسيحية، وأكثر أصالة من أى أحد آخر؛ وأنهم أصحاب الأرض الطبيعيين، حسبما ذكر فرناندو نونييث مولاى Fernando Nuñez Muley فى عريضته. وتضمنت الكتب الرصاصية أيضًا بعض الأناجيل المزيفة التى تعظم من دور السيدة العذراء، والتى تؤسلم وتلغى تلك المفاهيم المسيحية التى يصعب على المسلمين تقبلها، ومنها ألوهية المسيح وتقديس الصور. ولم يقتصر التزييف على الموريسكيين وحدهم، ولكنه تم بموجب تواطؤ أو مشاركة شخصيات تابعة للكنيسة الكاثوليكية، ذلك لأنه تضمن أيضًا دفاعًا حارًا عن

عذرية مريم(*)، وعن وصول سانتياغو Santiago ، وكلتا القضيتين كانت تحظى بدفاع شديد من جانب الكنيسة الإسبانية. ولقد أسفر ذلك عن أسلوب خاص للتعايش جمع بين مسيحية متأسلمة (أو إسلام متنصر) وبين بعض الأفكار شديدة المناهضة للإصلاح. وقد أثار هذا الموضوع جدلاً كبيرًا بين من تصدى له (وعلى رأسهم أسقف غرناطة نفسه) ومن كانوا يصرون على أنها عملية تدليس، جدالا استمر طويلا حتى جنح الفاتيكان إلى اعتباره تزييفًا عام ١٦٣١.

ثمة محاولة مهمة فى الخط نفسه، وهى رسالة كتبها الموريسكى الغرناطى ميغيل دى لونا Miguel de Luna، هو ورفيقه ألونسو دى كاستيو Alonso de Castillo، المترجم الخاص للملك فيليبى الثانى، إلى اللغة العربية، والتى تحمل عنوان : القصة الحقيقة للملك دون رودريغو Rodrigo(**)، واللذان أسندت إليهما الكتب الرصاصية. فقد أكد ميغيل دى لونا أن تلك الرسالة إنما هى ترجمة إلى الإسبانية، لرسالة تاريخية عربية، بينما هى فى الواقع عملية تزييف؛ فالعملية كانت مجرد إعادة كتابة تاريخ إسبانيا (فى عصر

(*) تعرضنا لموقف الموريسكى من عذرية مريم فى دراستنا "ثقافة موريسكى : قراءة فى المخطوطة رقم ٩٦٥٤ بمكتبة مدريد الوطنية" المؤتمر العالمى الحادى عشر للدراسات الموريسكية ، زغوان، تونس، ٢٠٠٣ . (المراجع).

(**) نسعى إلى ترجمة هذه الوثيقة المهمة إلى اللغة العربية وربما تُنشر الترجمة قريبًا ضمن إصدارات المجلس الأعلى للثقافة. (المترجم)

فيليبى الثانى، فى الوقت الذى كانت تجرى فيه بالتحديد عملية صياغة أسطورة التقويط goticista) والتى تناولت الملك رودريغو والقوط وكأنهم كانوا بؤرة للفساد والانحراف، وأن الشعب الإسبانى هو الذى ناشد العرب لكى يمدوا إليه يد العون ويهبوا لإنقاذه وتحريره(*).

استهدفت الأمثلة الثلاثة المذكورة أن يكون للموريسكيين موقع غير موقعهم، ودور غير دورهم فى التاريخ وفى المجتمع الإسبانى، وطرح الإسلام فى صورة غير مناهضة، بل وكأنه نسخة حقيقية نقية وأصيلة وقريبة من المسيحية، ولكن هذا لم يحقق شيئًا . ومن الغريب أن قطاعا من أشد عناصر الكنيسة الإسبانية تشددًا (تحديدًا أولئك المؤيدون لفكرة الطرد) استخدم جانبًا من ذلك الطرح، وهو طرح لأفكار من الفقه الإسلامى، مثل أولئك الذين كانوا يقولون إن كلا من اليهود واليونانيين أفسدوا الكتب المقدسة فى الأزمان السابقة، وذلك لاستخدامها فى صراعهم ضد الإنسانيين الذين درسوا ونشروا فى تلك العصور إصدارات وترجمات جديدة للنصوص العبرية والإغريقية من العهد القديم والعهد الجديد. وهذه أمثلة تثبت أن ثمة مسيرة امتدت على مدى العصور الوسطى : أناس يدينون بديانات

(*) انظر قراءة ماركيث بيانويبا لهذا الموضوع فى كتابه "القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى" ترجمة عائشة سويلم، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥ . (المراجع)

مغايرة، تعيش فى مناخ واحد، وتتلقى الحوافز الفكرية نفسها، تستولى على أعمال وأفكار معارضيها فى الوقت الذى يمكنهم فيه الاســتفادة لتحقيق أهداف الديانة التى يدينون بها.

(٥)

الموريسكيون بعد الطرد

عرف الموريسكيون فى المغرب بأنهم رفاق مواطنة مع من سبقوهم إلى هناك تحت اسم الأندلسيين، وقد ذهبوا إلى هناك لكى ينضموا إلى صفوف هجرات توالت فى تدفقها على مدى قرن من الزمان.

لقد أسفر التقدم الرائع والحاسم الذى شهده منتصف القرن الخامس عشر، عند استيلاء المسيحيين على مملكة غرناطة، عن موجة طرد استهدفت سكانها الذين تركوا بصمات واضحة على مختلف مناطق شمال إفريقيا. وبلغت تلك الهجرة ذروتها من فالنسيا إلى غرناطة، بعد الاستيلاء على تلك الأخيرة، وكانت بمثابة معبر لرءوس الصفوة الغرناطيين . كانت عمليات الفرار تجاه الشاطئ الجنوبى للبحر المتوسط مستمرة طوال النصف الأول من القرن الخامس عشر، ولكن تلك الهجرة بلغت ذروتها ثانية أثناء حرب البشرّات **Alpujarras**.

وبصورة عامة، فإنه إذا كان العنصر الأندلسى لم يظهر فى المقدمة على الساحة المغربية حتى أواخر القرن الخامس عشر، فإن ذلك لم يكن سوى المصير المنطقى لعملية تطور طويلة، لأن الهجرة إلى المغرب كانت على مدى تاريخ الأندلس، مجرد منفذ للهرب من الاضطرابات الداخلية، وملجأ للمتمردين أو ضحايا النكسات السياسية، لجأ إليه الفقهاء والعلماء لتلقى العلم فى القيروان أو تلمسان أو فاس. كذلك كان للمصالح التجارية والسياسية للأندلس ثقل كبيرٌ أسهم فى إقامة الأندلسيين فى المغرب. وكان المغرب بصفة خاصة هو المكان الذى استقبل النازحين نتيجة للحروب المسيحية التى اندلعت فى القرن الثالث عشر.

انضم المدجنون والموريسكيون قبل عملية الطرد واللاجئون فى ساحل الشمال الإفريقى إلى صفوف القراصنة(*) فى تلك المنطقة، وقاموا بعمليات إغارة دخلوا من خلالها شبه الجزيرة لتخليص إخوانهم فى الدين ونقلهم من هناك، وأدى كل ذلك إلى تنشيط أعمال القراصنة، وخاصة فى بحر ألبوران Alboran والسواحل الشرقية.

(*) تتحدث المؤلفة هنا عن نوعين من القرصنة : القرصان الحكومى corsario ، والقرصان الخاص Pirata. كان القرصان الحكومى تحميه تعاهدات دولية وكان لا يحصل بمفرده على الغنائم كلها. عمومًا فإن المؤرخين العرب يكرهون لفظ "قرصنة" ويتحدثون عن "الجهاد البحرى" وأرى أن هذا الاسم ترجمة مناسبة جدا لكلمة corsario، أما القرصان الخاص فهو مجرد شخص يعمل لمصلحته وربما تورط فى الهجوم على أى سفينة بغض النظر عن جنسيتها. (المراجع)

ولقد أكد هؤلاء المواطنون الأندلسيون مدى تطــرفهم فـــى العــداء المتــأجج نتيجة اقتــلاعهم من ديارهم بســبب الحروب، وبـــســبب ما تنطوى عليه صدورهم من أحقاد ضد سكان شبه الجزيـــرة. هـــذه الصفات، إضافة إلى معرفتهم بشواطئ شبه الجزيرة، وإلمامهم بلغـــة قشتالة أو فالنسيا، وارتدائهم الزى المحلى الشائع فى تلــك المنـــاطق جعل لدخولهم إلى شبه الجزيرة مردودًا فعالاً.

وخلال الفترة ١٦٠٩-١٦١٠، خرجت من إسبانيا أفواج كبيرة من الموريسكيين متجهة إلى فرنسا وإيطاليا، ذلك لأن القرارات التى صدرت فى بادئ الأمر قضت بألا يصطحب المهاجرون إلـــى دول إسلامية أبناءهم معهم. ومن هناك، أى من كل من فرنسا وإيطاليـــا، ذهب عدد قليل منهم إلى مصر(*) وتركيا، وإن كان السواد الأعظـــم منهم هاجر إلى بلدان الشمال الإفريقى، إلى حيث ذهب كل من غادر مناطق التاج القشتالى فى المرحلة الثانيـــة خـــلال الفتـــرة (١٦١٠-١٦١٤).

جاء النص الذى سوف أتحدث عنه فيما بعد، فى سياق رسالة لمؤرخ مغربى يدعى المقرى **Al Maqqari**، وكان معاصـــرًا لعمليـــة الطرد وهى عبارة عن مقدمة موجزة وخاصـــة بموضـــوع إقامـــة

(*) انظر فى هذا الموضوع كتاب د. عبد الرحيم عبد الرحمن ، وثائق المغاربـــة مـــن ســـجلات المحاكم الشرعية المصرية إبان العصر العثمانى (٣ أجزاء) ، مؤسسة التميمى للبحث العلمى والمعلومات ، زغوان ، تونس. (المراجع)

الموريسكيين فى البلدان الإسلامية التى استقبلتهم.

"خرج الآلاف فى الطريق إلى فاس، واتجهت آلاف أخرى إلى تلمسان ، بدءًا من وهران، وقصدت جماعات منهم تونس. وبينما هم ماضين فى طريقهم، انقضت عليهم عصابات من البدو، وأناس لا يخافون الله فى مناطق تابعة لفاس وتلمسان، فاستولوا على أموالهم، ولم ينج من هذه المحنة إلا فئة قليلة منهم؛ هذا على خلاف من اتجه منهم إلى تونس، فقد وصلوا جميعًا سالمين. بنوا هناك قرى وشعابًا فى مناطق غير مأهولة، وفعلوا ذلك فى سلا ومتيجه Mitiya فى الجزائر".

"اتخذ سلطان المغرب بعضهم جنودًا وزودهم بالسلاح وأقاموا هناك فى سلا، بينما انصرف آخرون إلى امتهان العمل الحربى النبيل فى البحر، باعتباره من الأعمال المشهورة بالنسبة لما يتعلق بالدفاع عن الإسلام، قاموا بتحصين قلعة سلا، وهناك أقاموا قصورًا، وحمامات وبيوتًا، مازالت قائمة حتى الآن".

وصلت جماعة أخرى إلى إستنبول، وإلى مصر، وسوريا العظمى، وأيضًا وصلت جماعات أخرى إلى مختلف المناطق المسلمة. وهكذا فإن الأندلسيين موجودون حاليًا (طبقًا لترجمة إيبالثا Espalza عام ١٩٩٢) (*).

(*) انظر الترجمة العربية لكتاب إيبالثا "الموريسكيون فى إسبانيا وفى المنفى"، ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥ . (المراجع)

هذه الوثيقة تعد بمثابة تقرير عن الصعوبات التى واجهها الموريسكيون لدى وصولهم ، وذلك إضافة إلى الممارسات الوحشية وعمليات السطو التى كان يتعرض لها المطرودون من قِبل أطقم البحارة وملاحى السفن التى كانت تنقلهم إلى الشاطئ فى الناحية الأخرى من المضيق. هناك أيضًا مجموعة من القواعد والأسس، سوف أطرحها فى الصفحات التالية. اتبع الموريسكيون من حيث المبدأ نموذجًا حياتيًا مشابهًا لما هو متبع فى الدول المضيفة، وخاصة فى البلدان الواقعة تحت الوصاية، فى الجزائر وتونس، والتى كانت تابعة للإمبراطورية العثمانية، وفى المغرب، البلد الوحيد الذى ظل مستقلاً عن إسطنبول. أقام الموريسكيون المطرودون، كما أقام من سبقهم اعتبارًا من النصف الثانى من القرن الخامس عشر، أقاموا بصفة أساسية فى المدن الساحلية (الرباط، وسلا، وتطوان وموستاغانم **Mostaganem** ، وشرجيل **Chercel**، والجزائر، وبجاية **Bugia** ، وبونا، وبنزرت، وتونس، وطرابلس... إلخ)، وهناك امتهنوا القرصنة ، أى القتال فى البحر المتوسط، وفى المحيط الأطلسى (حيث كانوا يعترضون السفن المارة إلى العالم الجديد بصورة مستمرة) ضد المسيحيين، على سفن ترفع علامة السلطة السياسية.

القرصنة هى الوسيلة الدفاعية التى كانت تلجأ إليها الدول التى تفتقر إلى أسطول نظامى، ويقع الجانب الأكبر من موانيها تحت

الاحتلال البرتغالي والإسباني (مازاغان Mazagan وطنجة، وسبتة ومليلة، ومضيق بيليث، ووهران، وحلق الوادي Goleta). تزامن طرد الموريسكيين تحديدًا في عام ١٦١٠ مع احتلال إسبانيا لميناء العرائش المغربي Larache، و كان وجود الموريسكيين في الكيانات الدفاعية وفي جيوش دول الشمال الإفريقي، وخاصة في أجنحة المدفعية، من المظاهر المألوفة بصفة عامة. ولقد أقام الموريسكيون أيضًا في عواصم تلك الدول وفي مختلف مدنها في كنف السلطات السياسية المسيطرة هناك، وكانوا يحيطون بالسلطان وبالبكوات العثمانيين، كما كان يوكل إليهم بمهام إدارية، وعينوا في مناصب المترجمين، كما اشتغلوا بالتجارة والحرف اليدوية... إلخ أيضًا تملكوا أراضي زراعية في محيط المدن التي أقاموا بها ، وعمومًا، شارك الموريسكيون في الحياة المدنية وسط مختلف الأجناس في موانئ البحر المتوسط خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، مع تجمعات أخرى شملت مسلمين ويهود من أصل أوروبي أيضًا. وكانت تلك المدن متعددة اللغات، وإن كانت الغالبية العظمى بها تتحدث العربية. فهناك من كان يتكلم التركية، ومنهم من يتكلم البربرية، إضافة إلى خليط من اللغات السائدة جميعها في دول البحر المتوسط، وذلك يرجع إلى وجود أعداد كبيرة من التجار والأسرى. وقد شارك الموريسكيون في تعدد اللغات هذا، وأصبحت الإسبانية

موجودة فى كل مكان نظرًا لانتشارهم فى مختلف مدن المغرب، وخاصة فى مراكش. واستطاع الموريسكيون أن يسيطروا على مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية فى مختلف الوديان والدلتا المغربية وكانت تلك الأراضى تقع دائمًا قريبة من المدن التى يقيمون فيها، وذلك تحت حماية السلطة السياسية.

أقام الموريسكيون فى تجمعات خاصة بهم بصفة عامة، على هامش مجتمعات الأغلبية كما سبق أن ذكرنا، وذلك على الرغم من تمتعهم بحماية السلطة السياسية، اعتبروا هناك وكأنهم جسم غريب، مما أثار الشكوك فى حقيقة إسلامهم. وحاول كثيرون منهم العودة إلى المواقع الإسبانية مثل سبتة، أو مليلة، أو طنجة، أو وهران، حتى لو كان الثمن أن يحيوا حياة العبيد. كما حاول بعضهم الإقامة فى مناطق أخرى خاضعة للتاج الإسبانى، مثل صقلية. وقد علمنا أن كثيرين منهم ماتوا لكونهم مسيحيين مخلصين(*)، أو لإعلانهم ذلك، أو لرفضهم الامتثال لعمليات الختان. وتجمع الموريسكيون فى الغالب سواء فى محال إقامتهم، أو فى أماكن العمل، مع جماعات أخرى فى مناطق محيطة بالمدن، مثل من عرفوا بالمارقين (الأسرى الأوروبيين

(*) نتساءل هنا : ما الذى يدفع المسيحى المخلص إلى الهجرة من إسبانيا إلى بلد إسلامى؟ وإذا كانت السلطات الإسبانية شكت فى عقيدته المسيحية وطردته، ألم يكن الأحرى به أن يهاجر إلى بلد مسيحى مثل فرنسا؟ (المراجع)

الذين اعتنقوا الإسلام)، واليهود من أصل إسبانى المطـرودين عـام ١٤٩٢، حيث كانوا يتقاسمون معهم استخدام اللغـة، والخصائص الثقافية، وخاصة الإسبانية. امتهنت الجماعات الثلاثـة القرصنة(*) عملت الجماعتان الأولى والثانية فى القرصنة، وفى تسليح السفن وتموينها. أما المجموعة الثالثة فقد تخصصت فـى إنقـاذ الأسـرى وتخليصهم، وفى ممارسة التجارة. ولكن هناك أغلبية كبيرة امتهنـت تلك الحرفة التى تميزوا بها فى إسبانيا : الزراعة والرى، وزراعـة البساتين، فأدخلوا المزروعات والتقنيات التى اشتهروا بها فى الوطن القديم، كما تخصصوا فى الأعمال الحرفية كصناعة الجوخ والحرير، وفى تصنيع الأسلحة النارية وفنون البناء. وعلـى سـبيل المثـال، احتفظت المطرزات المغربية بما تميـزت بـه مطـرزات طليطلـة وسلمنكا من رسوم وحليات.

ومع ذلك ، لعبت ظروف مختلف بلدان الشمال الإفريقى دورًا فى وجود اختلافات فى أسلوب حياة سكانها من الموريسكيين، ولكـن بمرور الوقت انتهى بهم الأمر إلى الانخراط كلية فى حيـاة السكان المحليين.

(*) لمعرفة نشاط اليهود فى ذلك العصر انظر كتاب غارثيا أرينال وجيرارد ويغرس "بين الإسلام والغرب" ترجمة ممدوح البستاوى، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥ . (المراجع)

المغرب :

الموريسكيون الذين وصلوا إلى المغرب، وأقاموا بـــه، أتـــوا بصفة خاصة ضمن المطـــرودين مـــن إكـــستريمادورا، وقـــشتالة، وأندلوثيا، والتحموا بالغرناطيين الذين سبق أن هاجروا إلى هناك من قبل.

تولت أسرة السعدى مقاليد الحكم فى المغـــرب اعتبـــارًا مـــن منتصف القرن السادس عشر، وقد استمدت هذه الأسرة شرعيتها لكى تمارس السلطة هناك بزعم أنها من نسل النبى محمد صلى اللّه عليه وسلم ، وبالتالى فإنهم من الأشراف. ولجأت هذه الأسرة المالكة فـــى أكثر من مناسبة إلى عقد تحالفات مع التاج الإسبانى، وخاصـــة مـــع فيليبى الثـــانى، وذلـــك لحمايـــة نفـــسها مـــن التـــدخل التركـــى ؛ فالإمبراطورية العثمانية كانت قد وصلت بحدودها حتـــى الجزائـــر، وتسعى إلى ضم المغرب، وهذا ما كان يثير مخاوف كل من السعدى والإسبان. وفى الوقت الذى كان على المغاربة أن يحموا أنفسهم فيـــه من التدخل الإسبانى، ومن احتلال إسبانيا لعدد من موانيها الرئيـــسية، لجأوا بدورهم إلى العثمانيين.

بلغ حكم آل السعدى أزهى عصوره فى عهد السلطان أحمـــد المنصور (١٥٧٨-١٦٠٣). وقد تولى هذا السلطان العرش على أثر معركة القصر الكبير، التى أنزل المغرب فيها هزيمة نكراء بـــالجيش

البرتغالى بقيادة الملك سباستيان . كانت البرتغال أيضًا تخطط للتدخل فى المغرب، بدأته بغزو سبتة عام ١٤١٥، وواصلت تنفيذ مخططها بغزو أو إقامة عدد من الموانئ بالساحل المغربى على الأطلسى، بدءًا من سبته وطنجة حتى سانتا كروز برأس جوى Gue، أغادير حاليًا، وصافى Safi . وقد تم الاستيلاء على الأخيرين ما بين ١٥٠٣، و ١٥٠٨. كانت تعرف بحدود أو مدن مطلة على البحر، وكانت البرتغال تستخدمها فى الحصول على إمدادات القمح مما كان ينتجه المغرب، ومراس للسفن وهى فى طريقها إلى جزر الهند الشرقية. أثار وقوع تلك المواقع فى أيدى المسيحيين (إسبانيا كانت تحتل مليلة منذ عام ١٤٩٧)، مشاعر الضيق فى المغرب، علاوة على وقوف ذلك عائقًا أمام التجارة البحرية. وكانت عملية الخنق هذه من الأسباب التى دعت أحمد المنصور إلى غزو السودان الغربى فى عام ١٥٩١، أى بلاد جنوب الصحراء، حيث كانت مناجم الذهب، وحيث الطرق التجارية التى اكتسبت أهميتها منذ العصور الوسطى. لقد تم غزو السودان هذا، بالاستعانة بجيوش تضم موريسكيين هاجروا أثناء حرب البشرات، بالإضافة إلى من عرفوا بالمارقين(*)، إلى حد كبير.

توفى أحمد المنصور فى أواخر عام ١٦٠٣، على أثر إصابته بوباء الطاعون الذى اجتاح البلاد، وبوفاته دخل أبناؤه فى صراع

(*) تقصد المسيحيين الأوربيين الذين اعتنقوا الإسلام. (المراجع)

على الخلافة. إذن، فإن الموريسكيين الذين طردوا فى أوائل القـــرن السابع عشر، جاءوا إلى بلد اجتاحه الطاعون، أنهكته حـــرب أهليـــة طويلة.

وبوفاة المنصور نصب أحد أبنائه، مولاى زيدان، سلطانًا فـــى فاس، ونصب آخر، أبا فارس سلطانًا فى مراكش. وبعث هذا الأخير ابنه برفقة أخيه مولاى الشيخ المأمون (يعرف فى الوثائق الإســبانية باسم مولاى الشيخ) على رأس جيش إلى فاس، ولمـــا منــى زيـــدان بالهزيمة هرع إلى اللجوء إلى الأراضى التركية طلبًا للعـــون. إلا أن مراده لم يتحقق، لأن مولاى الشيخ نصب سلطانًا فى فاس. استغرقت الحرب الأهلية بضع سنين . وطلب مولاى الشيخ معونة من إسبانيا، حيث أقام هناك لاجئًا فترة من الزمن، وحصـــل على المعونة مقابل أن يسلم لفيليبى الثانى ميناء العرائش Larache . وكان هـــذا الميـنـــاء واحدًا من الموانئ القليلة التى بقيت فى أيدى المغاربة، وكان مثـــارًا لقلق دائم للإسبان، خاصة أنهم بذلوا جهودًا متكررة طوال فترة حكـــم فيليبى الثانى للاستيلاء عليه دون كسر التحالف مع المغرب؛ لما كان يمثله من ضرورة باعتباره سدادة فى مواجهة الدفع التركى. عـــلاوة على ذلك، أصـــبح ميـنـــاء العـــرائش ملجـــأ للقراصـــنة المغاربـــة، والموريسكيين، بل والإنجليز والهولنديين، لما كان يشكله من خطـــر يتهدد سواحل إسبانيا الجنوبية، وخاصة على الطريـــق إلـــى العـــالم الجديد.

كان مولاى زيدان، وقد بدا لفترة أنه هو الذى سيكسب الحرب، يثير قلق الإسبان كثيرًا، ذلك لأنه كان المرشح الذى يحظى بتأييد تركيا. وبالفعل تضمن أول مرسوم بالطرد، والذى صدر فى عام ١٦٠٩، أن الخطر الوشيك الذى يتمثل فى مولاى زيدان، إنما هو واحد من الأسباب التى أدت إلى اتخاذ هذا القرار فى ذلك الوقت. وبمجرد تنفيذ قرار الطرد، قام مولاى زيدان بتجنيد فرق كبيرة من الموريسكيين المطرودين، فى صفوف جيشه، كما فعل والده أحمد المنصور من قبل.

اكتسب الغرناطيون - وقد أعادوا تعمير مواقع متعددة على ساحل المغرب المطل على الأطلسى منذ منتصف القرن الخامس عشر - أهمية جديدة فى ذلك الحين. ولعل أبرز وضع كان وضع تطوان، تلك المدينة التى تعرضت للسلب والنهب والتدمير على أيدى البرتغاليين عام ١٤٣٧. وحصل أحد الزعماء الغرناطيين، المنداري، على ترخيص من سلطان فاس لإعادة تعميرها بمواطنين غرناطيين، إضافة إلى إعادة أعمارها وتحصينها. وطوال القرن التالى اكتسبت تطوان، تلك المدينة التى أصبحت فى وضع مستقل عمليا، وجميع سكانها تقريبًا من الأندلسيين، اكتسبت أهمية من الدرجة الأولى فى النشاط التجارى، وفى تهريب الأسرى. الوضع نفسه ينطبق على

طازوطه Tazuta بالقرب من مليلة، أو شاوين Xauen (شفشاوين Chefchaouen)(*).

كشفت أعمال تنقيب أجريت مؤخرًا في الساحل الشمالى للمغرب وحول سلسلة من القلاع الحصينة، عن مؤشرات بأنها أقيمت بأيد أندلسية على النمط الإنشائى المتبع فى نظم المراقبة الساحلية بمملكة غرناطة.

إذن فإن الموريسكيين الذين هاجروا إلى الأندلس قبل عمليات الطرد التى نفذت فى الفترة ١٦٠٩-١٦١٤، وما بعدها، قاموا بمهام على قدر من الأهمية فى جميع صور الحرب، كان ذلك ضمن صفوف جيوش السلطان، أو فى عمليات القرصنة. لدينا مثال واضح لأساليب حياة تلك المجموعة من الناس، وهو ما يتمثل فى ترجمة حياة سعيد بن فرج الدوكالى Al-Dugaly، وسوف أعرض لحياته باعتباره حالة نموذجية، ومثال مجموعة كرست نفسها لأولى المهام سالفة الذكر.

ولد الدوكالى فى مملكة غرناطة، ثم هاجر إلى المغرب فى تاريخ يسبق حرب البشرّات خلال الفترة ١٥٧٠-١٥٧١. ثم أقام

(*) صدر عن المجلس الأعلى للثقافة كتاب غوثالبيس بوستو "الموريسكيون فى المغرب" ترجمة مروة محمد ابراهيم، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، وهو يتناول الدور الذى لعبه الموريسكيون فى المغرب من جميع النواحى، وربما يصدر كتاب آخر عن المندارى الغرناطى مؤسس تطوان. (المراجع)

فى تطوان، وهناك انصرف إلى ممارسة القرصنة، وفى عام ١٥٦٣ تقريبًا، كلفه السلطان بتشكيل قوة مدفعية بالجيش، من الموريسكيين . ثم منحهم السلطان أراضى فى سهل مراكش الخصيب، وذلك لتمكينهم من توفير احتياجاتهم المعيشية، وهناك زرعوا البساتين وقاموا بغرس الأشجار المثمرة. وفيما يبدو أن تلك المجموعة كانت تبلغ نحو ألفى شخص، ووصل بهم الأمر إلى أن كونوا شكلاً من أشكال الصوفية، تأتمر بأوامر الدوكالى، الذى شارك فى مختلف الحملات التى جردها السلطان، بصورة متميزة.

واستمر الدوكالى فى انخراطه فى نشاط القرصنة. وفى عام ١٥٧١ كان له فى سلا Salé سبع سفن قرصنة مجهزة وعلى أهبة الاستعداد لشن هجمات على جزر الكنارى، واستخدم تلك السفن فى عمليات سلب ونهب أسفرت عن احتلال مدينة "الرصيف" Arrecife فى لانثاروتى Lanzarote . ظل الدوكالى وأتباعه أصحاب اليد الطولى فى الجزيرة طوال شهرى سبتمبر وأكتوبر من العام نفسه وفى عام ١٥٧٣، استولى على بلدة كهوف المنصورة Cuevas de Almanzora فى إقليم غرناطة، ونقل جميع سكانها أسرى إلى المغرب.

واصل الدوكالى، هو وجنوده الموريسكيون المسلحون بالبنادق مشاركتهم فى عمليات لحساب السلطان، ضد قبائل متمردة امتنعت

عن دفع الضرائب، وكذلك فى الأعمال التحضيرية لمعركة القصر الكبير. ولما عجز السلطان عبد الملك عن معرفة المكان الذى يرسو فيه الملك سباستيان فقد بعث السلطان بعدد من الفصائل إلى مختلف المواقع بالساحل وأوفد الدوكالى، وكان قد حصل فى ذلك الوقت على لقب "باشا".. إلى سوس وذلك للدفاع عن رأس أغير **Aguer**. ولقى عبد الملك حتفه فى المعركة وكانت آخر مغامرة طموحة لهذا الموريسكى، هى محاولة القيام بانقلاب عسكرى ضد خلفه أحمد المنصور، كان سببًا فى تنفيذ حكم الإعدام فيه عام ١٥٧٩(*).

إلى جانب تطوان، والتى كانت تحقق اكتفاءً ذاتيا للموريسكيين، تمثلت أقرب المواقع أهمية فى المغرب، فى المحور الرباط – سلا . ففى عام ١٦١٤ تقريبًا، أقامت مجموعة كبيرة من الموريسكيين، قدم القطاع الأكبر منها من قرية أورناتشوس **Harnachos** التابعة لإقليم إكستريمادورا، عند مصب نهر بورقريق **Beregreg**، وعلى ضفتيه الرباط من جانبه الجنوبى، وسلا من الجانب الشمالى.

وجد أهل أورناتشوس قلعة الرباط، وتسمى حاليًّا (قصبة العديات) مدمرة، فاحتلوها وأعادوا بناءها وتحصينها. وخلال

(*) هناك شخصيات موريسكية قامت ببطولات فريدة فى الجهاد ضد الإسبان. انظر مثلاً قصة بلانكيو التى وردت فى أعمال سيرافين كالديرون. (المراجع)

السنوات التالية قدم عدد آخر من الموريسكيين الذين وفدوا من إكستريمادورا، ومن أندلوثيا على وجه الخصوص، وانضموا إلى المجموعة الأولى محتلين شمال المصب، أى سلا.

أكسب تسليم ميناء العرائش إلى الإسبان فى عام ١٦١٠، واستيلاؤهم على ميناء المعمورة **Mamora** عام ١٦١٤، محور الرباط – سلا ، قيمة جديدة، باعتباره الميناء المغربى الوحيد فى شمال ساحل الأطلسى، والذى يتميز بموقعه الممتاز بالنسبة لاعتراض الطريق إلى العالم الجديد وإلى المضيق. تحول هذا الميناء فيما بعد، مثل تطوان، إلى بؤرة للقرصنة، حيث لجأ إليه قراصنة إنجليز وهولنديون أيضًا.

واعتبارًا من العقد الذى بدأ فى عام ١٦٢٠، بدا ميناء سلا كيانًا سياسيا مستقلاً. وتولى حكم ما سمى "بجمهورية سلا" مجلس مكون من اثنى عشر عضوًا، مارس مهامه كما لو كان مجلسًا بلديا إسبانيًا، أما رئيسه فكان برتبة أدميرال (أمير بحر). ومن حيث التنظيم، كان قريبًا جدا من كونه بلدية إسبانية، وأما بالنسبة لوظيفة المدينة والحياة فيها فكانت أقرب إلى الموانئ التركية فى البلدان الواقعة تحت الوصاية، كالجزائر، أو تونس، أو طرابلس. وفى عقد ١٦٣٠، أعلن من جديد أن أهل سلا، على الأقل اسميًا، رعايا سلطان المغرب، وكانوا قد قاسوا كثيرًا من الهجمات التى كان جيشه يشنها

عليها، كما عانوا أيضًا من هجمات تعرضوا لها من جيشه ومن قوى أخرى متمردة على السلطان فى شمال المغرب. وفضلاً عن ذلك، حاول أهل سلا أكثر من مرة التفاوض مع إسبانيا، يطالبونها بأن تمد إليهم يد العون فى مواجهة أعدائهم، مقابل التنازل عن الموقع، وتمكينهم من العودة إلى إسبانيا. كانت أولى محاولات التفاوض فى عام ١٦١٤، ثم تكررت المحاولة فى سنوات ١٦١٩ و ١٦٣٢ و١٦٣٧ و ١٦٦٣.

سبق أن ذكرنا من قبل أن الموريسكيين تقلدوا مناصب مختلفة فى محيط السلاطين، بالإضافة إلى نشاطهم الحربى فى البر والبحر. فقد استخدم آل السعدى العديد من الموريسكيين ليعملوا فى خدمتهم، اعتبارًا من منتصف القرن الخامس عشر، فاستخدموهم مترجمين ومبعوثين فى مهام إلى الخارج. وكما جاء فى سياق حديثنا عن الجنود، والقراصنة، سوف أتناول هنا، على سبيل التوضيح، خط مسار حياة فريدة.

لعل أبرز مثال لهؤلاء الموريسكيين الذين عملوا فى البلاط المغربى، هو أحمد بن قاسم الأندلسى، المعروف باسم الحجرى. ربما يكون من مواليد ١٥٦٩ أو عام ١٥٧٠ فى إسبانيا، ويحتمل أن يكون مولده فى إكستريمادورا وإن كان قد عاش أيضًا فى إشبيلية ومدريد.

شارك مترجمًا فى حكاية الرق الذى اكتشف فى البـرج التوربيـانى Turpiana فى غرناطة، وفى كتب الجبل المقدس الرصاصية.

تنكر الحجرى فى هيئة مسيحى عجوز، ونجح فى الإبحار من ميناء سانتا ماريا فى قادش متجهًا إلى ميناء مازاغـان البرتغـالى. وتمكن من الهروب أيضًا من هناك إلى مـراكش، واسـتقبله هنـاك السلطان أحمد المنصور. وكان ذلك فى عام ١٥٩٩ وفـى مـراكش تزوج الحجرى ، وكون أسرة. ولما استقر مولاى زيدان فى مدينـة مراكش، عين سكرتيرًا ومترجمًا للسلطان عام ١٦٠٨، وقـام بـدور مهم فى الحياة الثقافية بالمدينة. ثم حدث طرد الموريسكيين بعد فتـرة زمنية قصيرة، وتعرض فوج منهم، وهو فى طريقه إلى المنفى على متن أربع سفن، تعرض لواقعة سرقة فقد فيها أعضاء الفوج أمتعـتهم من قبل طاقم البحارة. ولما وصل هذا الفوج من الموريـسكيين إلـى المغرب، تقدم أعضاؤه بشكوى إلى مولاى زيـدان، فقـرر قبـل أن يطالب السلطات الفرنسية، أن يبعث بأحمد بن قاسم الحجـرى إلـى أوروبا، إلى فرنسا وهولندا.

وكان الحجرى رجلاً على درجة عالية من الثقافة، فـأجرى اتصالات فى هولندا بأوائل المستشرقين فى جامعة ليـدن، وبـالأمير موريسيو ناسو Mauricio Nassau، وكذلك أيضًا مع الجالية اليهوديـة

الإسبانية والبرتغالية، حيث جمعت بينهم شراكة في اللغة، وأجرى معهم مناقشات وجدالاً دينيا. وكتب الحجرى عن رحلته إلى أوروبا كتابًا على قدر كبير جدا من الأهمية، تناول فيها تلك التجارب تفصيلاً. وبعد عودته إلى مراكش، تسلم مهامه سكرتيرًا ومترجمًا، واستمر في وضعه طوال فترات حكم السلاطين التاليين. وترجم أيضًا عددًا من المؤلفات العربية إلى اللغة الإسبانية، مؤلفات دينية، لكى يستعين بها الموريسكيون فى المنفى الذين ما زالوا يجهلون اللغة العربية حتى ذلك الحين . وترجم إلى العربية أيضًا، هذه المرة، فى تونس، حيث أقام حتى وفاته، دليلاً عن المدفعية(*).

ولكن كانت هناك شخصيات أخرى، وإن كانت مهامها أقل أهمية، مثل سيدى عبد الله دودار، وهو موريسكى ولد فى غرناطة، وكان يجيد الإسبانية تمامًا، كما كان ملمًّا بالإيطالية. وفى عام ١٦٠٠ عمل بالسفارة المغربية فى إنجلترا مترجمًا. وكان لدى أحمد المنصور مترجم أندلسى آخر، هو عبد الرحمن القطَّانى، والذى سوف نلتقى به ثانية فى مراكش، عام ١٦٠٩، مترجمًا لمولاى زيدان. أيضًا هناك موريسكيون سيتولون مهام سفراء فى كل من إنجلترا وهولندا، مثل أحمد بن عبد الله المارونى ويوسف بسناينو.

(*) هو كتاب "العز والمنافع للمجاهدين فى سبيل الله بالمدافع" ومؤلف الكتاب موريسكى استطاع أن يحرر كتابه بالإسبانية على ضوء ما شاهده أثناء وجوده فى الأسر. (المراجع)

مارقون، وموريسكيون ويهود إسبان، كانوا هم السبب الـذى دعا دول شمال أوروبا، وخاصة إنجلترا وهولندا، إلى إقامة علاقـات دبلوماسية مع المغرب، وكانت مراسلات هذه الدول مع المغرب تـتم دائمًا باللغة الإسبانية.

الجزائر:

كانت مدينة الجزائر بالنسبة للرأى العام الأوروبـى، وبـصفة خاصة جدا الرأى العام الإسبانى، هى عاصمة القرصـنة بالدرجـة الأولى؛ حيث كان يجد فيها القراصنة الملجأ والزاد. فكانـت أفـواج الأسرى تتدفق عليها سنويا، إضافة إلى الغنائم من مختلـف أنـواع السلع. الأسرى، والقراصنة، والمارقون (المرتدون) كانوا هم الإطار الذى يطوق المدينة فى نظر المعاصرين من الإسبان والأوروبيـين. وكانت مصادر المعلومات فى الغالب عبارة عن كتابـات اسـتهدفت جمع الأموال اللازمة لفداء الأسرى، أو كتابات تحث التاج على غزو الجزائر. وكان يطيب لهذه المصادر أن تجد مناخـا يـساعد علـى انتشارها فى الملمات، ووسط ما يعانيه الأسرى، وفى قساوة الأتراك، بل وفى الأخطار التى كانت تحدق بالأسرى بما يدفعهم إلى الارتـداد عن دينهم، وبالتالى إلى فقدان العامل الروحى لديهم. ولقد جـاء فـى تلك المصادر، وهى فى الغالب من كتابـات رجـال الكهنـوت، أن

الحرية الجنسية مع غياب الإحساس بالشرف، قد تحالفا على إغــراء الأسرى بأن يتخلوا عن الجانب الإيمانى وينــصرفوا إلـــى تكــوين الثروات فى المجتمع التركى المغاربى. لأن الجزائر كانــت مدينــة الأسر، بل وهى البلد التى يجوز فيها كل شىء، حيث تتيــسر للعبيد أو المحرومين فرص تحقيق الثروات، والوصول إلى مــستوى فـــى السلطة العسكرية والسياسية بعيدًا كل البعد عن أى تصور فى ذلــك المجتمع متعدد الطبقات والمنشأ.

توافق ازدهار مدينة الجزائر مع وصول القراصـــنة عــروج Aruch وخير الدين باربااروخا، ثم توليهما السلطة هنـــاك. اســتطاع الأول أن يحصل على مساندة العثمانيين، وقبائل البربر على الساحل الجزائرى علاوة على مساندة الجاليات الموريسكية، وخاصــة تلــك التى وفدت من فالنسيا وأراغون، والتى استقر بها المقام فى المناطق الساحلية، وذلك بحجة الكفاح ضد الإسبان الذين كانوا يسيطرون على المضيق المؤدى إلى ميناء الجزائر. استولى عروج على السلطة فى مدينة الجزائر عام ١٥١٦، بعد أن أعـــدم مُليكهـــا المحلـــى حليــف الإسبان، ولكنه بدوره منى بالهزيمة وقتلــه الإســبان عــام ١٥١٨. وخلفه شقيقه خير الدين، الذى كان ينطوى تحت لواء الإمبراطوريـــة العثمانية التى تلقى منها معونة عسكرية تركيـــة. أصــبحت مدينــة الجزائر والمنطقة المحيطة بها مقاطعة جديدة تابعــة للإمبراطوريـــة

العثمانية، لها جيش قوامه ألفان من الإنكشاريين وأربعة آلاف جندى آخرين من الشرق Lvante والقراصنة. ثم استولى خير الدين على المضيق فى عام ١٥٢٩ وطرد الإسبان المتمركزين هناك. استطاع بارباروخا - بما كان يتميز به من حنكة سياسية وفكر إستراتيجيى عسكرى- أن يجعل من مدينة الجزائر وهى تحت الوصاية العثمانية، جزءًا من الإمبراطورية العثمانية، حتى إن السلطان سليمان العظيم عينه أدميرالا (قبودان باشا على الأسطول العثمانى) وهو الذى استولى على تونس عام ١٥٣٤ وانتزعها من أيدى الإسبان. اجتاح هذا الأسطول العثمانى السواحل الإيطالية فى السنوات التالية، وأوقع عددًا كبيرًا من الرجال فى الأسر. قال المؤرخ فرانثيسكو لوبيث دى غومارا Francisco Lopes de Gomara "خير الدين بارباروخا هو أعظم القراصنة"، وهو أحسن قائد بحرى، لا مثيل له، وما من أحد بمقدوره أن يفعل أفضل مما فعله هو فوق الماء. ومن إنجازاته، تحصين الجزائر، وجعلها مدينة غنية، متعددة الأجناس ، الحياة فيها منتعشة، ومركزها حصين(*).

أصبحت محمية الجزائر المركز الرئيسى للسلطة العثمانية فى المغرب، وهى القاعدة التى كان ينطلق منها العثمانيون فى حربهم

(*) ربما يصدر عن المجلس الأعلى للثقافة قريبا كتاب غومارا "الإمبراطور كارلوس الخامس وحروب البحر المتوسط" ترجمة ناهد العشرى، مراجعة جمال عبد الرحمن. (المراجع)

ضد الإسبان. وكان داى الجزائر يباشر سلطاته باسم السلطان، حتى على باشوات تونس وطرابلس، وبذلك كان هو أعلى سلطة عثمانية فى غرب البحر المتوسط. لم يبق إلا المغرب خارج نطاق السيطرة التركية، إلا أن الجزائر كانت تأوى وتساعد مختلف المرشحين الذين كانوا يتطلعون إلى تولى عرش المغرب، وكثيرًا ما ألقت بثقلها فى النزاعات الداخلية وفى الصراع على عرش ذلك البلد المجاور.

جرت سلسلة من الاتصالات بين كارلوس الخامس وبارباروخا، ساعد على إجرائها أندريا دوريا **Andrea Doria** ونائب ملك نابولى فرناندو غونثاغا **Fernando Gonzaga**، بهدف التوصل إلى اتفاق بشأن استرداد الأسرى من رعايا التاج الإسبانى، ولكن المحاولات باءت بالفشل؛ مما أدى إلى قيام كارلوس الخامس بتجريد حملة هائلة على الجزائر عام ١٥٤١، وانتهت الحملة بكارثة إسبانية، مما أسفر عن ترسيخ شهرة الجزائر بوصفها قوة لا تقهر وحصنًا منيعًا. أصدر السلطان العثمانى مرسومًا بمنح حسن أغا، البيك الجديد، وخليفة باربارو‌خا رتبة باشا، وبدأت مرحلة سيطر فيها قراصنة الجزائر على البحر المتوسط. اعتمدت هيبة المحمية ورخاؤها إلى حد كبير على بطولات القراصنة وعلى نجاح الحرب الدائرة ضد إسبانيا. أصبحت القرصنة منذ عصر آل باربارو‌خا وحتى عام ١٥٨٠ (ذلك النشاط الذى كان يتمتع بضمان حكومى)

هى البديل عن حرب غير معلنة. ثم طرد فرسان مالطة من طرابلس عام ١٥٥١، وتم الاستيلاء على جزيرة جربة Djerba عام ١٥٦٠، ومات كونت ألكاوديتى Alcaudete، حاكم وهران على أثر هزيمة موستاغانم Mostaganem. وفى إسبانيا اندلعت ثورة الموريسكيين فى البشرّات عام ١٥٦٨، وما تلاها من حرب أخرى أسفرت عن هزيمة الموريسكيين الغرناطيين، مما ضاعف أعداد المقيمين على الساحل الجزائرى، كما تضاعفت أعداد المجندين فى صفوف القراصنة الأتراك والبربر.

ملأ الأندلسيون مدينة الجزائر بعد ثورة غرناطة عام ١٥٠١، وما ترتب عليها من صدور مرسوم التحول الدينى. وكانت وهران بدورها ماضية فى إيواء أعداد كبيرة ممن لجأ إليها من الغرناطيين منذ عام ١٤٩٣. وكان الإخوة باربا روخا Barabaroja يسهلون هم ومن خلفهم عمليات هجرة الأندلسيين دائمًا، وكانوا يجندون المهاجرين فى الحملات والعمليات الهجومية على المسيحيين، كما يسروا لهم التوطن فى أراضيهم، حيث أفادوا منهم فى استزراع الأراضى الخصبة فى سهول المنطقة المعروفة بمنطقة متيجة Mitiya، والتى تقع ما بين الجزائر العاصمة وبليدة، وذلك فى الفترة من ١٥٠١إلى ١٥٢٩، وكذلك جذبوا كل ما أمكن لهم من المهاجرين بالطرق الخفية، وخاصة بعد الهزيمة التى منى بها كارلوس الخامس

فى الجزائر عام ١٥٤١ . وساعد المهاجرون الغرناطيون بانضمامهم إلى صفوف جيش العلج على Uluch Ali الموريسكيين المتمردين فى حرب البشرات وتولوا تنظيم عمليات نقل الآلاف منهم فى أعقاب الهزيمة التى لحقت بهم.

ويحكى لنا دييغو دى هاييدو Diego de Haedo الذى كتب وصفا مشهورًا لمدينة الجزائر فى عقد ١٥٧٠ أنه خلال السنوات التى قضاها فى المدينة (الفترة نفسها التى قضاها أيضًا أسير مشهور آخر : ميغيل دى ثيربانتيس Miguel de Cervantes) كان فى مدينة الجزائر عشرون بيتا لمسلمى غرناطة، وأراغون، وفالنسيا، وقطالونيا "ممن هاجروا من تلك المناطق ودائمًا ما كانوا يخرجون مع نسائهم وأبنائهم". ويقول هاييدو إن هؤلاء الموريسكيين الإسبان ينقسمون إلى عنصرين منفصلين، بعضهم المدجنون، والبعض الآخر الثغريون (أو الحدوديون)، من أراغون، وفالنسيا، وقطالونيا . وجميعهم من أصحاب الحرف، أهمهم المتخصصون فى صناعة البنادق. وكانوا يعملون أيضًا بتربية دود القز "كبار السن منهم، وأشد الأعداء قسوة بالنسبة لنا نحن المسيحيين، فى بلاد البربر". كان الموريسكيون يقومون بتسليح مراكبهم الشراعية، بمساعدة القباطنة الأتراك، وكذلك الفرقاطات، ثم يبحرون متجهين نحو تلك المواقع على الساحل الإسبانى، حيث يقيم ذووهم وأصدقاؤهم. وكانوا يدخلون

بمساعدة هؤلاء مرتدين الملابس المسيحية، ويتحدثون بالإسبانية أو بلغة أهل فالنسيا . وبذلك كانت تسهل لهم عمليات السلب والسطو، إضافة إلى اختطاف الأسرى، إضافة إلى مساعدة موريسكيين آخرين على الهرب.

جعل الأتراك من مدينة الجزائر، فى أواخر القرن السادس عشر، مدينة متعددة الأجناس، مبرقشة، وثرية، وفى صخب دائم. وكان سكان الجزائر، مثل سكان باليرمو أو روما، وربما كانوا أكثر تميزًا منهم. تقع المدينة على خليج شديد الانحدار تكاد تغلقه مجموعة من الجزر الصغيرة، وكأنها سدادات (موقع تشبهه المصادر الإسبانية المعاصرة بقوس المنجنيق)، ويحتمى هذا الخليج بتحصينات أقامها بارباروخا **Barbarroja** ، وأما وسط المدينة فقد أحسن تخطيطه، حيث يطالعنا بعدد من القصور الخاصة بالغة الثراء. مدينة ساحلية تعج بحركة تجارية كثيفة تتميز بخليط من السكان، وصفها من زارها من الأوروبيين فى القرن السادس عشر بأنها مدينة مزدهرة ومريحة وجميلة وعامرة بالبيوت الفاخرة والحمامات العامة، والحصون المنيعة والعمائر الدينية الرائعة. الثراء هناك يتحقق سريعًا وفرص الرقى الاجتماعى ميسرة وبوفرة. يتنوع سكان الجزائر ما بين بربر وأتراك وعرب، علاوة على موريسكيين إسبان ويهود وأسرى ومرتدين من كل أركان أوروبا. وتشير المصادر بوضوح إلى أن

الأندلسيين، بما كانوا يحظون به من رعاية من قبل الأتراك، وبانضمامهم إلى صفوف قواتهم المسلحة، والحرس الخاص، لعبوا دورًا كبيرًا فى دعم سلطة الصفوة الحاكمة التركية، والتى ظلت بعيدة عن السكان المحليين رغم كل شيء.

كان البحر والملاحة هما عصب الحياة بالمدينة. وبالتالى كانت صناعة بناء السفن وتموينها، وتصنيع السلاح وتجارة المواد اللازمة لتلك الصناعات (وكانت الجزائر تعتمد على استيرادها من الدول المعادية لإسبانيا وخاصة إنجلترا) تمثل جانبًا كبيرًا من الاقتصاد. ولم يقتصر تكوين الثروات على القرصنة والاتجار بالأسرى فى المدينة فحسب، بل كان هناك نشاط تجارى مكثف. اشتهرت منطقة الجزائر بإنتاج الحبوب، والصوف، والزيت، والعسل، والزبيب، والتمور. وكانت السفن الإنجليزية تفرغ هناك حمولاتها من الحديد، والرصاص، والقصدير، والسبائك، والبارود، كما كان القطالونيون والفالنسيون يحملون معهم اللآلئ والأحجار الكريمة والنبيذ لبيعها هناك. وكان أهل الجزائر يجلبون القطن، والجوت الخاص لأشرعة السفن، وملح البارود، والبارود، وحجر الشب، والقار اللازم لصناعة السفن، من مرسيليا، وأما المدن الإيطالية فكان أهلها يجلبون معهم الأقمشة الحريرية، والسلع الترفيَّة، كما كانت حركة المرور مستمرة مع إسطنبول ، وعبر هذه المدينة كانت تصل السلع الواردة من الهند.

كانت التركية هي اللغة الرسمية في المدينة، وكان أغلب السكان يتحدثون العربية أو البربرية، نظرًا لوجود أعداد كبيرة من رجال قبائل الجبال القريبة من هناك، كانوا يفدون إلى المدينة للتجارة. بيد أنه كانت تتردد الأحاديث بكل اللغات، سواء كان ذلك في الميناء، أو في الأحواش التي كان ينام بها الأسرى ليلاً، إضافة إلى لغة حرة، وهي خليط من مختلف اللغات. وتحدثنا مؤلفات ثيربانتيس، وقد أمضى هناك بضع سنوات في الأسر، عن حركة جميع أنواع البشر من مختلف بلدان العالم، ومن مختلف الأعراق والطوائف الدينية، والتي لم تتوقف في المدينة. كل فئة تعرب عن نفسها بلغتها وبطريقة الملبس الخاصة بها. طوائف كل طائفة منها مختلفة عن الأخرى، ولكن الحدود بينها قابلة للنفاذ، مما جعل تجاوزها أمرًا يسيرًا. وأناس جمعت بينهم عناصر ثقافية واجتماعية عديدة، اختلطت لغاتهم، وتعددت بينهم الأديان والأمم. ويصف ثربانتيس المدينة وهو في الأحواش فيقول : "الجزائر ، حسبما أرى، سفينة نوح مصغرة، هنا كل شيء، كل الحرف والمهارات الكامنة. لم يكن الموريسكيون الذين طردوا في القرن السابع عشر، والذين انتهى بهم المقام في الجزائر، سوى فوج من الأفواج الذي سبقت إلى هناك وعاشت منذ نحو قرن ونصف قرن من الزمان. ولم يتخذ هؤلاء من المدينة ولا الأراضي الخصبة المحيطة بها مقرا لإقامتهم فحسب، بل لجأوا،

فى أحيان أخرى، إلى إعادة تعمير الموانئ المتناثرة على طول الساحل، وخاصة بجاية Bugía ، ودليس Dellis، وبونا Bona، وعنابة على الساحل الشرقى، وتنيس Tenes، وبرشيك Birchic، وشرجيل Cherchel على الساحل الغربى.

تونس :

طائفة الموريسكيين فى محمية تونس العثمانية أشهر الطوائف الثلاث التى أشرت إليها . ولعل هذا يرجع إلى أنها كانت طائفة معرفة ومحددة بصورة جيدة جدا داخل المجتمع التونسى، سواء كان ذلك فى القرن السابع عشر أو فى القرون التالية، فهى لم تذُب، ولم تتكيف كلية فى مجتمع الأغلبية، كما حدث فى البلدين اللذين تناولناهما. وهى بالتالى الطائفة التى أجرى بشأنها أكبر قسط من الدراسات المتخصصة.

واجهت تونس خلال القرن السادس عشر العديد من الهجمات المسيحية، وخاصة عملية استيلاء كارلوس الخامس على ميناء حلق الوادى Guleta، وموانئ أخرى أيضًا (بنزرت Bizerta) وانتهى الأمر إلى أن فرض كارلوس الخامس شكلاً من أشكال الحماية على الأسرة الحاكمة هناك لكى يحول دون استيلاء العثمانيين على مناطق قريبة

من مناطق تابعة لأملاك إسبانيا فى جنوب إيطاليا (مملكتى نابولى، وصقلية). ولم يستول الأتراك على تونس كلية حتى السنوات الأخيرة من القرن.

هذا الوضع المستقل عن إسبانيا، بالإضافة إلى البعد الجغرافى الكبير، يوضح أن تونس لم تتلق، خلافًا للمغرب والجزائر، تسرب الهجرات المستمر الذى شهدته البلدان الأخرى منذ أواخر القرن الخامس عشر. ولقد تدفقت الهجرات على تونس بصورة فجائية، وبأعداد كبيرة على أثر عملية الطرد التى وقعت فى عام ١٦١٤ حيث وصل إليها نحو ٨٠٠٠٠ موريسكى. وكانت تلك هى آخر موجة، الموجة الأخيرة من أكثر المسلمين تشبعًا بالثقافة الإسبانية، وهؤلاء لم يجدوا فى تلك الأرض المضيفة أية كيانات أقامها مهاجرون أندلسيون فيما سبق، حتى ينضموا إليها.

تدخل السلطان العثمانى أحمد الأول (١٦٠٣-١٦١٧) لدى السلطات الفرنسية، وسلطات البندقية – حيث كان بلداهما قد أوقفا عددًا لا حصر له من الموريسكيين المطرودين- لكى تسهل السلطات هناك إجراءات المرور إلى البلاد الإسلامية، وفى الوقت نفسه طلب من السلطات التركية فى تونس أن تستقبل الموريسكيين المطرودين. وقام عثمان داى، بعد قيامه بإعادة تنظيم البلاد، بانتهاء فترة التدخل

الإسبانى والصراعات الداخلية التى تفجرت بعد أن رسخت السلطة العثمانية وجودها، قام بإعفاء السفن التى كانت تقل موريسكيين من رسوم الموانئ ، ثم منح الموريسكيين إعفاءات ضريبية، وأقطعهم الأراضى اللازمة للإقامة، إضافة إلى ما كفله لهم من حماية على الصعيد الرسمى.

أقام الموريسكيون فى ضواحى تونس، وفى وادى نهر مجيردة Meyerda، وفى السهول الشمالية والممتدة من بنزرت إلى تونس، ونابل Nabuel وكذلك زغوان Zaghouan، بجانب الجبل الذى يمد مدينة تونس بالمياه عبر ممر مائى. مازالت هناك فى تلك المناطق قرى كان جميع سكانها موريسكيين، ولم تزل خصائصهم العمرانية والمعمارية قائمة هناك وخاصة فى تستور Testur، وفى قلعة الأندلس، وغرومباليا Grumbalia. وفى بنزرت مازال هناك حى يدعى حى حومة الأندلس، أى "حى الأندلسيين" وعلى محراب الجامع الكبير فى تستور، تاج من فن الباروك. هو الفريد فى العالم، وينسب إلى الموريسكيين أيضًا ميدان طبربة Teburba وهو ذو طابع إسبانى بحت، وكذلك مختلف النافورات العامة المتوفرة فى البلدان التى كان يقطنها الموريسكيون. تميز هؤلاء السكان (الموريسكيون) بالأعمال المدنية المتعلقة بالرى، وشق مجارى المياه التى كانت تمد مدينة تونس بالمياه.

أقام الموريسكيون فى هذه القرى الصغيرة فى تجمعات متجاورة، نظمت على نظام الجماعات Aljamas نفسه ، وطبقت نظام الرئاسة نفسه بها، وكان أول شيخ للأندلسيين، وهو ما لدينا بيانات مكثفة عنه، هو لويس ثاباتا Luis Zapata، ثم جاء بعد ذلك ببضعة عقود، التاجر والثرى الكبير مصطفى دى كارديناس. وكانت للموريسكيين مؤسساتهم الخيرية الخاصة، ومدرسة عليا لشباب الموريسكيين . وكان موريسكيو تونس، الذين قدموا من وادى نهر الإبرو، ومن القشتاليين (قشتالة القديمة وقشتالة الحديثة) لا يعرفون العربية، كما كانوا يدعون بأسماء إسبانية، وعلى الرغم من تغييرهم لاسمهم الرسمى بشكل سريع، فإن الألقاب وأسماء الأماكن ظلت قائمة على مدى قرون. وحصل الموريسكيون فى سنوات وصولهم على تصريح بأن يتلقوا التعليم الإسلامى باللغة الإسبانية، حتى يمكنهم مواصلة الكتابة بها. وثمة مخطوطات موريسكية تونسية كتبت بالإسبانية(*)، ومازالت محفوظة، وخاصة فى الموضوعات الدينية، والمتعلقة بالأخلاق، وكذلك الموضوعات الشعرية والأدبية. إلا أنه فيما يبدو، فإن سيطرة اللغة الإسبانية فى الكتابة لم تتجاوز الجيل

(*) أجرينا دراسة على إحدى هذه المخطوطات التى حررها موريسكى باللغة الإسبانية . انظر : د. جمال عبد الرحمن، ثقافة موريسكى، قراءة فى المخطوطة رقم ٩٦٥٤ بمكتبة مدريد الوطنية"، المؤتمر العالمى الحادى عشر للدراسات الموريسكية، زغوان، تونس، ٢٠٠٢ . (المراجع)

الأول من المهاجرين، وبالتالى، وبعد فترة، أغلقت السلطات التونسية المدارس التى يتم التعليم فيها باللغة الإسبانية، وأصدرت أوامرها بأن يتلقى الأطفال الموريسكيون تعليمهم فى المدارس العربية. وفى منتصف القرن الثامن عشر انتهى استخدام الإسبانية فى الحديث الشفوى فى تونس.

شكل الموريسكيون عنصرًا أساسيا فى تألق تونس خلال العصر العثمانى. تخصصوا فى الأنشطة البحرية، كما امتهنوا الزراعة أيضًا (وخاصة الزراعة المكثفة) والتجارة، ومارسوا الحرف الحضرية. تركوا بصماتهم واضحة فى فنون البناء وكذلك فى جميع الفنون المتعلقة بصناعة الخزف. ومن تراث الموريسكيين أيضًا برزت صناعة النسيج، النسيج الفاخر، بل واهتموا بصناعة الحرير، والتطريز، والديباج، وصناعة القياطين، واحتكروا هناك، على وجه الخصوص تصنيع القلنسوات وتسويقها، وهى غطاء الرأس الأحمر المصنوع من اللباد الذى يتميز به التونسيون.

خلاصة القول هنا أنه من الملاحظ أن الموريسكيين، سواء كانوا مهاجرين أو مطرودين إلى الشمال الإفريقى، احتفظوا بخاصية مميزة، موازية لما كانوا عليه فى شبه الجزيرة (على مدى قرن من الزمان على الأقل) : الاشتغال بالزراعة المكثفة، والرى، والحرف

الحضرية، وبخاصة الحرف المتعلقة بفنون المعمار، وصناعة الحرير والمنسوجات، والتجارة. كما مارسوا الأنشطة التى كانت شائعة لدى تجمعات شبه جزيرة إيبريا ولدى ورثتهم فى المغرب، وتفوق الموريسكيون فى تلك التجمعات المغربية أيضًا فى نقل التقنيات والمعارف المتقدمة فى التطور فى شبه الجزيرة، وبوجه خاص جدا مختلف فنون الحرب، والمدفعية بالذات. وأما بالنسبة للأسلحة النارية فقد عملوا بها اعتبارًا من التصنيع وحتى الاستخدام بوصفهم جنودًا، بيد أنهم ابتكروا أيضًا تقنيات جديدة فى عالم البناء، وفى العمران - حيث أضافوا مخططات عصر النهضة - وفى الرى، بل حتى فى المنتجات الزراعية الجديدة.

أدخل الموريسكيون فى شمال إفريقيا منتجات زراعية سبق أن عرفتها شبه الجزيرة من أمريكا. منها على سبيل المثال نبات الصبار، والذى تتميز به البيئة فى شمال إفريقيا، وهو ما أسماه الفرنسيون "تين البربر"، وهو الصبار الهندى الذى أحضره الإسبان من العالم الجديد.

اقترن طابع التهجين المتأصل فى الثقافة الموريسكية بصورة كبيرة مع الطرد ، " فإذا كان الموريسكيون فى إسبانيا يعتبرون مسلمين تمامًا، أو يعاملون على أنهم جنس غريب غير قابل للتكيف،

باعتبارهم ارتبطوا فى مناطق معينة بالكلام باللغة العجمية Aljamia، وبأسلوب خاص فى الكتابة، فإنهم كانوا يعتبرون غرباء أيضًا فى شمال إفريقيا، وكانت أكبر تهمة تلصق بهم أنهم يعتنقون المسيحية، أو أنهم فى حاجة إلى الأسلمة من جديد"، على الأقل كانت لغة التخاطب بينهم هى الإسبانية وكذلك لغة الكتابة. وكان الموريسكيون ناقلين للثقافة الأندلسية، بل والإسبانية على وجه الخصوص، ثقافة إسبانية مشبعة بخصائص عصر النهضة والتأثير الأمريكى . وعلى خلاف ما حدث فى إسبانيا، استغرق الموريسكيون فى المغرب فترة تقل عن قرن من الزمان حتى يتكيفوا تمامًا مع مجتمع الأغلبية(*). فلم يبق من آثار أصولهم التى ترجع إلى شبه الجزيرة سوى مجرد حفنة من الألقاب، وذكرى لبعض العائلات الكبيرة.

(*) هذا منطقى لأنهم هاجروا إلى مجتمع يتفق مع قيمهم الإسلامية التى دافعوا عنها فى إسبانيا. (المراجع)

تعليق على المراجع

تتناول هذه القائمة، وإن كانت حديثة الظهور، مجموعة مـــن الكتب يسهل على القارئ غير المتخصص أن يحصل عليهـــا دون أن يضطر إلى الاستعانة بالكتب أو المجلات المتخصصة.

العناوين الخاصة بالمستعربين والمدجنين قليلة، ولعل أقـــرب قائمة خاصة بهم تتمثل فـــي كـــم كبيـــر مـــن المقـــالات الفرديـــة المتخصصة، ومن المراجع المفيدة :

Click. The Islamic and Christian Spain in the Early Middle Ages. New Jersy- 1979

وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإسبانية تحت عنوان:

Cristianos y Muslmanes en la España Medieval (711-1250)- Madrid, Alianza editorial, 1991

مسيحيون ومسلمون في إسبانيا العصور الوسطى.

ويستطيع القارئ أن يطالع المجلد المجمع بعنوان :

Minorités religueses dans l'Espagne mediévale. Vol 63-64. (1992)- Revue des mondes Musulmans el de la Mediterranée.- Aix- en – Provence.

وتتناول تراكيب وقوائم مفيدة للغاية.

١ - وفيما يتعلق بالمستعربين Mozárabes ، فإن الجزء الأكبر من الأعمال الحديثة يركز على المسيحيين فى الأندلس بصفة أساسية، مع تنويهات محدودة إلى هجرتهم إلى مناطق أخـــرى. ومـــن هـــذه الكتب:

Christy, A. Cristian in al-Ándalus (711-1100), Richmond Surry 2002.

ثمة استثناء ينبغى أن يوضع فى الاعتبار هو كتاب :

Millet-Gérard, D. Chrétiens mozárabes et culture islamique dans l'Espagne de VII-n-Paris 1984

(المسيحيون والثقافة الإسلامية فى إسبانيا خلال القرنين الثامن والتاسع).

Manzano Moreno E. La frontera de Al-Ándalus en la época de los omeyas- Madrid CISC, 1991.

حدود إسبانيا فى عهد الأمويين

إخلاء واستعمار وادى نهر الدويرو خلال الفترة مـــن القـــرن الثامن إلى القرن العشرين.

وحول كل من المستعربين والمدجنين فى منطقة طليطلة انظر:

- Molénat, J. P., Campagne et monts de Toléde du XII au XVéme siécle- Madrid, Casa de Velazquez, 1997.

- ريف إسبانيا وتلالها.

هذا ولا يزال هناك مؤلف قديم صدر ضمن مجموعة، له أهمية، وأن كان مضمونه قديمًا فى كثير من الوجوه، إنه كتاب.

- Cagicas, 1. de las, los mozárabes, Madrid, 1947- 1948.

- المستعربون

انظر أيضًا كتاب :

- Gonzalez Palencia, A., Los mozárabes de Toledo en los siglos XII y XIII, Madrid, 1962-1930.

- المستعربون فى طليطلة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر.

٢ - وثمة دراسة مماثلة تتعلق باليهود، حيث لم يصدر كتاب عن اليهود الذين هاجروا من الأندلس خصيصًا، وبالتالى إما إن نطالع عملاً مجمعًا مشتركًا حول أولئك الذين عاشوا فى الأندلس مثل:

- Ashtur, E. The Jews of Moslem Spain- 2 vol. Filadelfia, 1979.

- يهود إسبانيا المسلمة.

- وإما أن نبحث عن الموضوعات الخاصة بالمهاجرين، في القوائم العريضة التي تتناول يهود قشتالة وأراغون في العصور الوسطى. وهناك مؤلف جيد هو :

- Baer, Y., Historia de los judios en la España Cristiana, Madrid – Atlanta, 1981- 2 vol.

تاريخ اليهود في إسبانيا المسيحية.

وقد ترجم هذا الكتاب عن العبرية إلى الإسبانية.

هذا ويمكن استخراج تنويهات منعزلة حول يهود الأندلس من مؤلفات حول اليهودية في العصور الوسطى، في قشتالة ، وأراغون وحول قشتالة كتاب.

- Valdeón, J., Los conflictos socials en el Reino de Castilla en los siglos XIV y XV, Madrid – 1975.

- الصراعات الاجتماعية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر في قشتالة .

- وللمؤلف نفسه كتاب

- Los Judios de Catilla y la Revolución Trastámara.

٢ – يهود قشتالة وثورة تراستمارا

- وعن أراغون يمكن الرجوع إلى :

- Romano D. Los funcionarios judíos de Pedro el Grande de Aragon, Barcelona, 1983.

- الموظفون اليهود لدى بدرو العظيم، ملك أراغون.

- Hinojosa Montalvo, J., Los Judíos del Reino de Valencia de 1391 a 1992- Valencia 1991.

- وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية تحت عنوان :

- The Jews of the Kingdom of Valencia : from persecución toexplusión, 1391-1492, Jerusalén – 1993.

- يهود مملكة فالنسيا من الاضطهاد إلى الطرد.

ونجد فى المؤلف المجمع بعنوان : (عمليات إبعاد أراغونية Destierros Argoneses. Judios y moriscos، اليهود والموريسكيون، الصادر عن مؤسسة فرناندو الكاثوليكى Fernando el católico، عام ١٩٨٨ فى سرقسطة، قائمة مكتبية جيدة بأهم المتخصصين فى هذا الموضوع، بما فى ذلك المدجنين. ولعل من بين أهم الباحثين فى مجال الأقليات، فى أراغون (ماريا لويسا لا ديسما María Luisa Ladesma، وخ. ريبرا سانس J Riera Sans، ود. رومانو D. Romano،

وأ. بلاسكو A. Blasco) فقد نشر هؤلاء أبحاثهم فى شكل مقالات نشرتها مجلات متخصصة، أو شاركوا بها فى مختلف الأعمال الجماعية، منها على سبيل المثال: تاريخ أراغون Historia de Aragón، أو تاريخ إسبانيا Historia de España، لمنينديث بيدال Minendez Pidal ويتضمن كلاهما دراسات جماعية جيدة عن اليهود والمدجنين.

٣ - وتتكون قائمة الكتب التى تتناول المدجنين أيضًا، فى معظمها من دراسات أحادية أو فردية، محلية، متناثرة على صفحات عدد كبير من المجلات العلمية، أو فى مجلدات تاريخية، منها المؤلفان السالف ذكرهما، أو فى كتاب تاريخ قشتالة Historia de Castilla الصادر عن جمعية قشتالة وليون Junta de Castilla y Leon.

وإنه من الأهمية بمكان الاهتمام بمنشورات مركز دراسات المدجنين فى طرويل Centro de Estudios Mudéjares de Truel، والذى نشر محاضر المؤتمرات التى عقدت حول المدجنين، والتى يعقدها بشكل دورى، إضافة إلى الدراسات الأحادية أو الفردية . فقد نشرت حتى الآن محاضر المؤتمر السابع (٢٠٠٢). وكما هو الحال بالنسبة للموريسكيين، يتعين الاهتمام بمجلة شرق الأندلس Sharq Al-Andalus التى تصدرها جامعة أليكانتى، وهى بالإضافة إلى كونها مقصورة على المدجنين والموريسكيين تتضمن قوائم مكتبية مهمة.

أما مجلة ألخاميا Aljamía التى تصدرها جامعة أوبييدو Oviedo فهى مخصصة تمامًا لفهارس الكتب والمقالات(*).

وعلى الرغم من تناثر المراجع الخاصة بالمدجنين بالذات، فإن هناك مؤلفات مجمعة وموجزة حديثة، مزودة أيضًا بقوائم مكتبية طويلة تساعد على توجيه القارئ الذى يرغب فى التعمق فى دراسة موضوع معين. ومن أقدم هذه الأعمال المجمعة، والتى ما زالت على قدر كبير من الفائدة، نظرًا لأنها مزودة بتذييل وثائقى على درجة كبيرة من الثراء، مؤلف فرنانديث وغونثاليث، الصادر تحت عنوان وضع المدجنين الاجتماعى والسياسى فى قشتالة، الصادر فى مدريد، ١٨٦٦

- **Fernández y Gonzalez, M. Estado social y politico de los mudéjares en castilla, Madrid 1866.**

ومن هذا الكتاب نسخة فاكسميلى – صادرة فى مدريد إيبريون **Hiperión** ١٩٥٥.

وفى رأيى أن دليل هارفى، إنما هو مرجع رائع، فهو يجمع

(*) تحولت هذه المجلة إلى مصدر لا غنى عنه للباحث فى الموضوعات الموريسكية، فهى تقدم موجزًا من عدة صفحات عن كل كتاب ينشر فى هذا المجال. هذا بالإضافة إلى قوائم المراجع وأخبار المؤتمرات. (المراجع)

بين دراسة متزامنة مع ما حدث فى الأندلس، وبين مختلف طوائف المدجنين، والكتاب بعنوان :إسبانيا الإسلامية ١٢٥٠-١٥٠٠ الصادر فى شيكاغو ولندن – جامعة شيكاغو برس

Harvey, L.P. Islamic Spain- 1250-1500, Chicago y Londres, Chicago University Press, 1990.

ولعل أحدث دليل صدر، وهو مطروح حاليا ويتضمن مجموعة من الوثائق هو كتاب : هينيخوسا مونتالبو

- Los mudéjares. La voz del Islam en la España cristiana- Hinojosa Montalvo J. Centro de Estudios mudéjares, Truel 2002.

المدجنون : صوت الإسلام فى إسبانيا المسيحية

وهو من جزأين الثانى منهما مخصص للوثائق.

هناك سلسلة من الكتب أيضًا، تتناول المدجنين بالدراسة من زاوية التقسيم الإقليمى. وسوف أشير فقط إلى أهم هذه الكتب:

قشتالة :

- Castilla : Lodero Quesada, M.A. Los Mudéjares de Castilla en tiempos de Isabel la católica. Burgos- 1968

- المدجنون فى قشتالة فى عصر إيسابيل الكاثوليكية.

ويمكن قراءة هذا الكتاب مع كتاب آخر للمؤلف نفسه وهو :

- Granada, Historia de un pais islámico-Madrid 1978.

- غرناطة : تاريخ دولة إسلامية.

ومن مؤلفات الكاتب نفسه .

- Granada después de la conquista. Repobladores y Mudéjares- 1988.

- غرناطة بعد الغزو.

- Galán Sanchéz A., Los mudéjares del reino de Granada. - Granada de 1991.

- مدجنو مملكة غرناطة.

- García Arenal M. y Leroy B., Moros y Judíos en Navarra en la Baja Edad Media- Madrid, Hiperion – 1981.

- مسلمون ويهود فى ناباراًا.

هناك بعض الدراسات الفردية، والخاصـــة بمنـــاطق معينـــة، وتستهدف الموريسكيين . تبدأ هذه الدراسات بعـــدد مـــن الفـــصول المخصصة للمدجنين ، مثل :

- Tapia Sánchez S., La comunidad morisca de Ávila, Salamanca, Publicaciones de la Universidad 1991.

- جماعة الموريسكيين فى آبله.

أراغون :

لعله من المفيد أن نبدأ بالتعرف على الوضع هناك فيمـــا قبـــل الغزو المسيحى، ولذلك يمكن الاستعانة بـــ :

- Viguera M. J. Aragón musulmán, Zaragoza, 1981 Reed 1988.

- أراغون المسلمة

ويتركز الجانب الأكبر من الكتب فـــى العـــصور الوســـطى المتقدمة ومنها :

- Boswell, J. The Royal Ireasure : Muslim communities under the crown of Aragón in the fourteenth century. New Haven y Londres, Yale University Press, 1977.

الكنز الملكى : الطوائف المسلمة تحت تاج أراغون فى القرن الرابع عشر .

- Nirenberg D. Communities of violence. Persecution of minorities in the Middle Ages, Princeton University Press .

- طوائف العنف، اضطهاد الأقليات فى العصور الوسطى.

- Ferrer, M.T., Els sarrians de la corona , Catalana Aragonesa en el siglo XIV, Barcelona CSIC 1990.

- المسلمون فى المملكة القطالونية الأراغونية فى القرن ١٤.

فالنسيا :

فالنسيا تحظى بقائمة مكتبية كبيرة جدا وإن أكثر المشاركات وفرة، إذا بدأنا طبقًا للتسلسل التاريخى، أى بداية من القرن الذى تم فيه الغزو المسيحى، هى كتابات بيرنز Burns، صاحب سلسلة من الكتب المهمة التى تتناول فالنسيا خلال القرن الثالث عشر، ويسويها بإحدى ممالك الحملات الصليبية فى بلاد الشرق، ويصف وضعها بوضع ما قبل الاحتلال. ومن أشهر عناوين كتبه .

- The crusader kingdom of Valencia. Reconstruction of thirteenth century Frontier, Cambridge 1979.

- مملكة فالنسيا الصليبية.

- وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإسبانية تحت عنوان :

- El Reino de Valencia en el siglo XIII. 2 vol. Valencia 1982.

- Medieval Colonialism : Post crusader exploitation of Islamic Valencia, Princeton, 1975.

- استعمار العصور الوسطى . استغلال فالنسيا الإسلامية فى أعقاب الحروب الصليبية.

- O. Muslim, Christians and Jews in the Crusader Kingdom of Valencia – Cambridge 1984.

- المسلمون، والنصارى، واليهود فى مملكة فالنسيا المسيحية.

ولكن هناك مؤلفات أخرى متعددة للكاتب نفسه، وذلك بالإضافة إلى عدد من المقالات المتنوعة.

وتناول ب. جيسكار الفترة نفسها بالدراسة، ولكن من رؤية مختلفة تمامًا . فكتب

- Guichard P. Les musulmans de Valence et la Reconquete (XII-XIII siecles), Damasco, 2 vol. 1990-1991.

– مسلمو فالنسيا وحرب الاسترداد.

وتغطى كارمن بارثيلو الموضوع بشكل أكثر توسعًا (متضمنًا الموريسكيين) فى :

- Barceló, C. Minorías islámicas en el país Valenciano, 1984.

- الأقليات الإسلامية فى فالنسيا.

وانظر أيضًا.

- Ferrer : Mallol, M.T. Les aljames sarraines de la governació d'Oriola en el segle XIV : Cristians I sarraïns al pais valencia, Barcelona, 1988.

- La frontera amb L'islam en el segle XIV:

– الحدود مع الإسلام فى القرن الرابع عشر.

- Cristians I Sarrains al paía Valencia – Barcelona, 1988.

– مسيحيون ومسلمون فى فالنسيا.

- Meyerson, M. The muslims of Valencia in the age of Fernando and Isabel : Between Coexistence and crusade – Berkeley, 1991.

- مسلمو فالنسيا فى عهد فرناندو وإيسابيل : بين التعايش والحملة الصليبية، وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإسبانية.

وبالنسبة لفن المدجنين:

- **Borrás G., Arte Mudéjar aragonés, Zaragoza, 1978.**

- فنون مدجنى أراغون.

ونشرت منظمة متاحف بلا حدود مؤخرًا، مجلدًا خاصـا بفن المدجنين فى أنحاء شبه الجزيرة جميعهـا ، فـى صـورة رائعة، ومسار تصويرى جميل . صادر عن **(Madrid, Electra 2001)** .

٤- أما من يرغب في التعرف على الموريـسكيين، فهنـاك مرجعان لا غنى عنهما :

- **Dominguez Ortiz, y Vicente, B. Historia de los moriscos. Vida y tragedia de una minoira. Madrid – Revista de Occidente, 1981, varias ediciones, la última, Madrid, Alianza Ed.1997(*).**

- **Los moriscos antes y después de la expulsión Madrid Maphre, 1992(**).**

(*) تحت الطبع حاليًا الترجمة العربية لهذا الكتاب تحت عنوان "تاريخ الموريسكيين. مأساة أقليـة" ترجمة عبد العال صالح، مراجعة وتقديم جمال عبد الـرحمن، المجلـس الأعـلى للثقافـة. (المراجع)

(**) صدرت الترجمة العربية لهذا الكتاب تحت عنوان "الموريسكيون فى إسبانيا وفـى المنفـى" ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥. (المراجع)

تاريخ الموريسكيين – حياة أقلية ومأساتها.

الموريسكيون فى إسبانيا وفى المنفى.

هذه مراجع لا غنى عنها، وليست فى حاجة إلى أى تعليقات وهى أفضل مدخل ممكن إلى الفصلين الرابع والخامس من هذا الكتاب.

وللدخول فى محيط المنشورات الصادرة حول الموريسكيين، يتعين توفر دليل، لا لأن الكمية كبيرة فحسب، بل لأن المنشورات الصادرة تحتاج إلى شرح للموضوعات والمناقشات التى تنطوى على جانب كبير من المراجع. وسوف أشير هنا إلى قائمة من الكتب التى صدرت خلال السنوات العشر أو الخمس عشرة سنة الأخيرة، منها كتب حديثة، ومنها عدد لا حصر له من الكتب الكلاسيكية التى أعيد طبعها.

ولقد صدرت طبعة جديدة من مؤلف يورنتى **Llorente**(*) بعنوان

- **Historia de la Inquisición española, Madrid (Hiparión)**

(*) Juan Antonio Llorente ، قس ومؤرخ إسبانى أمين عام محكمة التفتيش. (المرجع)

- تاريخ محكمة Losantos التفتيش الإسبانية. وكتب مقدمة هذا الكتاب لوسانتوس Losantos وصدر أيضا :

- H. CH. Lea, Los moriscos españoles y la inquisición en Alicante (1990)- con estudio preliminar de Rafael Benitez Sánchez Blanco.

- الموريسكيون الإسبان ومحكمة التفتيش فى لقنت (أليكانتى) وكتب Benite Sanches Blanco مقدمة تمهيدية لهذا الكتاب.

- وأعادت سلسلة Archivom التى تصدرها إدارة النشر بجامعة غرناطة أعمالا مهمة طبع منها:

- Hortado de Mendoza, La Guerra de Alpujarras.

- حرب البشرات

- Hurtado de Mendoza y Gines Pérez de Hita, La Guerra de los moriscos.

- حرب الموريسكيين.

- Lognás, Vida religiosa de los moriscos.

- حياة الموريسكيين الدينية.

- **Boronot Barrachina, Los moriscos españoles y su expulsión.**

- الموريسكيون الإسبان وطردهم.

- **Godoy, Historia crítica de los falsos cronicones.**

- تاريخ نقدى للأخبار الزائفة.

- **Gallego y Borin y Gamir Sandobal, los moriscos del reino de Granada segun el sinodes de Guadix.**

- موريسكيو مملكة غرناطة على ضوء مجمع وادى آش الكنسى.

- Marmol, Rebelión y Castigo de los moriscos.

- ثورة الموريسكيين ومعاقبتهم.

- **Carrasco Urgoite, el moro de Granada en la literatura.**

- مسلم غرناطة فى الآداب الأوروبية(*) .

كانت الكتب التى تحدثت عن الموريسكيين وفيرة، فلم تخل فترة تاريخية منذ عملية الطرد التى حدثت ١٦١٠-١٦١٤ دون أن

(*) صدرت الترجمة العربية للكتاب، ترجمة شيرين محمود الرفاعى، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٥. (المراجع)

تولى اهتمامًا للقضية الموريسكية. إلا أن السنوات الأخيـرة شـهدت طفرة حقيقية فى الدراسات الموريسكية، ويتضح الاهتمـام والعنايـة بهذه القضية فى كمية المؤلفات "الكلاسيكية" التى أعيد طبعها، وفـى عدد الدورات، والمؤتمرات، والحلقات الدراسية، والمحاضرات، التى تناولتها من مختلف الزوايا، وما دار حولها من أساطير. وقد قامـت كل من فالنسيا وغرناطة بجهود تتعلق بالنشر سواء بالنسبة للمؤلفات الضرورية أو إصدار الطبعات المكررة أو بالنسبة لنشر المقالات فى المجالات الخاصة بالجامعات. وتخصص جامعـة أليكـانتى **Alicante** مجلتها شرق الأندلس **Sharq al-Ándalus** للدراسـات التـى تتنـاول المدجنين والموريسكيين، وينظم مركز سيرمدى **CEROMDI** بتونس، والذى يتولى إدارته الأستاذ عبد الجليل التميمى مـؤتمرات دوريـة، ويقوم المركز بنشر مضابط هذه المؤتمرات(*). هذا وتقوم أيضًا مجلة كرونيكا نوفا **Chrónica Nova** التى تصدرها جامعة غرناطـة بنـشر العديد من المقالات الخاصة بالموريسكيين. وقد خرجت إلى الـضوء أيضًا وثائق جديدة، وهى محلية بصفة عامة، بل ووثـائق عربيـة، ومصادر أدبية، منها الأدب الألخميادو **Aljamiada** (كتابـة إسـبانية

(*) تحول مركز الدراسات الموريسكية والعثمانية والبحوث والوثائق إلى "مؤسسة التميمى للبحـث العلمى" ولا يزال يقوم بدوره فى تنظيم المؤتمرات عن الموريـسكيين ونـشر أعمـال هـذه المؤتمرات. (المراجع)

بحروف عربية)، صدرت فى السنوات الأخيرة. ولا يتسع المجال هنا لتناول جميع هذه الإصدارات، بل يتعــذر مجــرد ســرد عنــاوين المؤلفات. وسوف أبدأ فى عمل تصنيف إرشادى حــول الاتجاهــات والاهتمامات التى تدور حولها قوائم الكتب الصادرة حــديثًا والتـــى تتناول قضية الموريسكيين.

إن وجود أقليات إسلامية جديدة فى أوروبا، مع وجود حركــة هجرة مغربية تتصاعد يومًا بعد يوم فى إسبانيا، ليسا بمنأى عن هذه الطفرة المتمثلة فى الاهتمام بالموريــسكيين. ويتبــين مــن بعــض المشكلات فى مجتمع جديد، قد يضم بين جنباته عددًا من التجمعــات الإسلامية، ربما تجعل منه مجتمعًا تعدديا بطريقة أو بأخرى، حتـــى وإن كان هذا رغمًا عنه. يتضح ذلك فى القلق الذى نجده فى كثير من الدراسات وفى الأسلوب الجدلى الذى كتبت به هذه الدراسات. ذلــك لأن إشكالية الموريسكيين ما زالت بعيدة عن أن تهدأ. ويكفى أنها قد بدت مطروحة فى إطار عبارات جديدة، لا تقتصر على الدفاع عــن قرار الطرد أو إدانته فحسب، كما كان الحال منذ قرن مــن الزمــان (وإن كانت تتعرض أحيــانًا إلى أنه كان يمــكن تجنــب هذا القرار أو عدم تجنبه) بل ركزت بصفة خاصة على السمات الإسلامية لهــذه الجماعة، أو على إمكانية اندماجها، أو على الطرق التى طرح فـــى إطارها موضوع الاندماج أو الرفض.

كان كتاب ماركيث بيانوبيا Marquéz Villanueva الذى صدر عام ١٩٩١، نقطة انطلاق نحو إجراء شكل جديد من النقاش. وينحصر موضوع هذا الكتاب فيما يلى : أن عملية التأريخ قد وقعت فى ثلاثة أخطاء عندما زعمت أن هناك خرافات ثلاثة : خرافة الإجماع على كراهية الإسبان للطائفة الموريسكية وخرافة الموريسكى الرافض للاندماج، ثم الادعاء بإلصاق صفة التآمر الدائم بالموريسكيين. ويقول ماركيث أن هذا يرجع إلى أن المؤرخين استقوا المعلومات من مصادر رسمية "مسمومة"، وأغفلوا أصول الأدب، والذى تنطلق من خلاله الأصوات المنشقة، إضافة إلى تيار فكرى مناهض. ويدعو ماركيث إلى قراءة جديدة لتلك المصادر الأدبية تستخلص منها معان جديدة. وتسير فى هذا الخط نفسه أجمل الدراسات الأدبية التى أجراها سوليداد كاراسكو أورغويتى S. Carrasco Urgoite (١٩٨٩)(*).

كتب ألبارو غالميس Álvaro Galmés (١٩٩٣) بدوره كتابًا يخالف مؤلف ماركيث، يرد فيه عليه. فهو يرى أن طائفة الموريسكيين مجتمع غير قابل "للتكيف"، بدليل أنها احتفظت بهويتها

(*) صدرت عن المجلس الأعلى للثقافة ترجمتان لكتابين لهذه الباحثة المتميزة : "مسلم غرناطة فى الآداب الأوروبية"، ترجمة شرين محمود الرفاعى، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن. و"المسلم عدواً وصديقاً"، ترجمة عبد العال صالح، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن.(المراجع)

رغم كل العقبات. ويرى غالميسGalmés ، أن الموريسكيين كتلة صماء ليس فيها فروج. وأن الطرد كان أمرًا محتومًا. وهو يرتكز أيضًا على مصادر أدبية، هى الأدب الألخميادو.

يرى ماركيث فى الأقليات عنصرًا من العناصر المكونة لمجتمع إسبانى متسامح ومتعدد الثقافات يصبو هو إليه. إنه يقول – دون أن يصل إلى إقناعنا فى رأيى- إن هذا المجتمع المثالى قد وجد بالفعل. يقول أيضًا إن مجتمع الأغلبية لم يكن متجانسًا ولم يكن هناك إجماع على كراهية الأقليات. (أما) غالميس فيرى أن الموريسكيين كانوا يمثلون مجتمعًا يتمسك بالإسلام تمسكًا تاما ويقول برغبة الموريسكيين فى احتفاظهم بهويتهم. يتحدث ماركيث بيانوبيا عن طمس الهوية الثقافية للأقليات ويؤكد أن الطرد كان يمكن تجنبه على أساس أن إسبانيا كان فيها من الرجال والعزم ما يسمح لها بتجنب الطرد.

ويؤكد بيرثيبال Perceval (١٩٩٧) بدوره الإجماع على الكراهية وعلى أن الإنسان الموريسكى فريد من نوعه، وأنه كما تصفه النصوص الأدبية نموذج نمطى واحد اتصف بكل الخصائص السلبية، بما يثير التقزز والاشمئزاز، بل ويتصف بالشيطانية. وركز فانخول Fanjul أيضًا على الصورة الشعبية، من خلال الفولكلور والأمثال والأعياد الشعبية، التى تزخر بالكراهية والرفض. ولقد كان للحكايات التى رواها الأسرى الذين اختطفوا إلى شمال إفريقيا، وما لا قوه

هناك من معاملة وحشية، دور كبير فى تجسيد هذه الصورة السلبية (فانخول ٢٠٠٢)، ويقترح فانخول رسم صورة مخالفة (على خلاف الصورة التى رسمها ماركيث)، وهى صورة هزلية وكاريكاتورية أيضًا، ولكن ذات دلالة سلبية دائمًا، وذلك للرد على خرافة التعايش والتكامل(*).

الاستخدام غير المناسب المشوه لتعبيرات معاصرة وقديمة تاريخيا، نشهده واضحًا جليا عند رودريغيث دى ثاياس **Rodriguez de Zayas** (١٩٩٢)، والذى سجل نحو ثلاثمائة صفحة مقدمة لمجموعة غير مسبوقة من الوثائق، بكل أسف، مترجمة إلى الفرنسية ترجمة سيئة. ولعل ما يسعى ثاياس لإثباته يتمثل فى أن قرار الطرد هو بمثابة السابقة الأولى فى تاريخ العنصرية والتطهير العرقى. وبالنسبة للموريسكيين يصر على طرح يوازى الطرح الذى يؤكد عليه بنيامين نتنياهو بالنسبة لليهود المتنصرين، وهناك احتمال كبير أنه تأثر بذلك الطرح، ذلك لأن كتاب نتنياهو أثار حملة جدلية كبيرة، كما لاقى تغطية إعلامية تناولتها أجهزة الإعلام (خاصة بعد ترجمة كتابه "جذور محكمة التفتيش" إلى الإسبانية – مدريد ١٩٩٩). لقد أكد برنارد فنسنت **B. Vincet** أنه لم تكن هناك أى سياسة قائمة على

(*) يرى هذا المؤلف أن الأثر العربى الإسلامى فى غرناطة مجرد أسطورة ، لأن المسلمين قد أجبروا على مغادرة غرناطة بعد ثورة البشرات، ونرى أن كتاب خوليو كارو وباروخا (مسلمو غرناطة بعد عام ١٤٩٢ ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن ، المجلس الأعلى للثقافى) يتضمن ردًا شاملاً ودحضًا لهذه المزاعم. (المراجع)

مبادئ عنصرية، على الإطلاق : فالقضية بالنسبة له كانت ذات طابع دينى فقط.

هناك سمة مشتركة بين كل من ماركيث Marquéz ، وكاراسكو أورغويتى Carrasco Urgoite ، وغالميس Gálmés ، وفانخول Fanjul، وبيرثيبال Perceval وهى أنهم (على الزغم من اختلاف تفسيراتهم) يستخدمون المصادر الأدبية قاعدة أو أساسًا لدراساتهم، ويتحدثون عن الموريسكى بوصفه فردًا، وكيانًا. إن غالميس، وماركيث، وبيرثيبال إنما هم مؤرخون للأدب، وإن السياق الذى يطرحون فيه الإشكالية، أو تحديد خصائص تلك الجماعة به قصور فى رأى كثير من المؤرخين، إما بسبب الإيجاز الشديد، أو بسبب التعرض للجوهر دون الخوض فى التفاصيل.

وأما المؤرخون (فنسنت Vincent، وبنيتس Benites، وغالان Galan، وغارثيا بدراثا Garcia Pedraza، وباريوس Barrios، وأغيليرا Aguilera إلخ) الذين انكبوا أساسًا على دراسات محلية، وعلى جماعات معينة، وعلى الجوانب الاقتصادية والاجتماعية، يرون المشكلة من زاوية أكثر دقة وتخصصية، حيث يتناولون مختلف الجماعات الموريسكية وفق خصائص جغرافية مختلفة، وحسب التسلسل التاريخى، فضلاً عن الجانب الاقتصادى، كما اتبعوا النهج نفسه بالنسبة لمجتمع الأغلبية، بمختلف درجاته (الكنيسة، والنبلاء، ومحكمة التفتيش، والتاج، والشعب بصفة عامة) وما اتخذته هذه

الطبقات من سياسات وإستراتيجيات متعاقبة (محاولات التنصير خلال الثلث الأول من القرن السادس عشر) أو تأثير عوامل أخرى مثل الصراع مع الأتراك، أو استفحال عمليات القرصنة، أو هدنة الاثنى عشر عامًا مع هولندا. يبدو أن المؤرخين بصفة عامة متفقون على أنه كانت هناك درجات مختلفة للاندماج، كما كانت هناك أيضًا درجات مختلفة بالنسبة لقبول المجتمع المسيحى أو رفضه، خلال مراحل مختلفة. فالأمر يتعلق إذن باختلافات منهجية ارتكزت على مصادر مختلفة، ولكن ينبغى أن ننبه إلى هذه الاختلافات، لأن قراءة كتب المؤرخين المحترفين، بما تتضمنه من وثائق أرشيفية، وبما تتميز به من أساليب تحليلية، وعرض للقضايا بشكل يتجاوز الخطوط العريضة، عادة ما تكون مملة وصعبة على القارئ غير المتخصص، بخلاف الكتب القائمة على نصوص أدبية. لا أقصد بهذا أن المؤرخين ينقصهم الاتجاه الفكرى أو الإيديولوجى (الأمر بعيد عن ذلك) بل إن المصادر شديدة التنوع، ومتعددة المصادر توضح مدى التذبذب والتغيرات التى تطرأ على الأوضاع المعقدة فى حد ذاتها.

إن نقطة الالتقاء التى تلتقى فيها هاتان المجموعتان من الباحثين هى أن قضية بناء الهوية الإسبانية تكمن فى خلفية كل منهما، وهى قضية بلغت درجة كبيرة من التطور فى هذا القرن الذى شهد الوجود الموريسكى. إن سمات هوية الإسبان خلال القرون الأولى من العصر الحديث تجرى صياغتها على أساس مناهضة مسلمى شمال إفريقيا، والسكان الأصليين فى أمريكا. وفى هذا المجال

تتبين ضرورة دراسة مدى التشدد فى المواقف المسيحية إزاء الأقليات المسلمة واليهودية التى شهدها القرن الخامس عشر، وخاصة فى النصف الثانى منه، بدءًا من النشاط التشريعى لكاتالينا دى لانكستر وحتى حكم مدينة Sentencia de Medina أو دراسة الكتب الخاصة بالجدل الدينى، أو المواعظ (Echeverría (1991) 2002, Espalza (1999), Bernabé (1995).

إذا كانت كتب المؤرخين التى تناولت قضية الموريسكيين أقل إثارة للجدل فى هذا العقد الأخير، فربما يرجع السبب إلى أنهم قد تخلوا عن الخوض فى تلك الجوانب التى أدت إلى أوضاع طغت على الساحة ، أقصد هنا محكمة التفتيش بصفة خاصة. فإن قضية الموريسكيين، وموضوع محاكم التفتيش، قد تناولتها قائمة عريضة من الكتب، شهدت فى عقد السبعينيات دفعة خاصة اعتبارًا من بعض المؤلفات منها :

Cardaillac, L., Marisques et Chretien's un affrontment polémique : Paris, Klinsieck, 1971.

وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإسبانية تحت عنوان :

Moriscos y Cristianos . Un enfrentamiento polémico, Madid,

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب لم يتناول محاكم التفتيش تحديدًا، فإنه تناول نشاطها بطريقة جديدة، وذلك لكى يصنع تاريخًا ثقافيا واجتماعيا. وفى السياق نفسه كتبت غارثيا أرينال، كتابًا بعنوان

Garcia Arenal Inquisición y Moriscos : los porcesos del tribunal de cuenca, Madrid, Siglo XXI, 1978- Reed 1983

- محكمة التفتيش والموريسكيون : قضايا محكمة كوينكا (*).

شهد عقد السبعينيات دفعة جديدة فى إسبانيا بالنسبة للدراسات التى أجريت حول محاكم التفتيش، كما شهد أيضًا اتجاهًا جديدًا فى معالجتها، ومن هذه الدراسات دراسات أجريت حول ممارسات محكمة التفتيش تجاه الموريسكيين. ومن هذه الدراسات الكتاب الجماعى لـ :

Cardaillac, L. y Vincent, B. (eds), Les morisque el l'inquistion, Paris, 1991.

ويشتمل أدب العجمية **Aljamiado** على مؤلف جيد التركيب هو

Wiegers, G.A, Islamic Literature in Spanish and Aljamiada : Yca

---

(*) صدرت الترجمة العربية لهذا الكتاب، ترجمة خالد محمد عباس، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٤. (المراجع)

of Segovia (d. 1450), his antecedentes and succesoors, Leiden, E.J. Brill, 1994. الأدب الإسلامى بالإسبانية والألخميادية.

كذلك أصدرت سلسلة CLEAM عن دار Gredos للنشر والتى يتولى إدارتها أ. غالميس دى فوينتس Galmes de Fuentes ، العديد من الأجزاء الخاصة بطبع ودراسة المؤلفات باللغة الألخمادية.

٥- الموريسكيون فى شبه الجزيرة

Braga, Isabel Drumond, Mouriscos e Cristaos no Portugal quinhestista. Duas culturas e duas concepcoes religiosas en Choque, Lisboa, 1999.

الموريسكيون والمسيحيون فى البرتغال فى القرن الخامس عشر ثقافتان، ومفهومان دينيان فى صدام.

- Barrios Aguilera, M. Granada Morisca, La convivencia negada, Granada, 2002.

- غرناطة الموريسكية – التعايش المرفوض تأليف م. تاريوس أغيلرا

- Benitez Sánchez – Blanco, R., Heroicas decisiones. La monarquía católica y los moriscos Valencianos. Valencia, 2001.

- قرارات بطوليــة. الملكيــة الكاثوليكيــة، والموريــسكيون الفالنسيون تأليف بنيتث سانشيث – بلانكور.

- Bernabé Pons, F. El evangelio de San Bernabé, un evangelio islámico español- Alicante, 1995.

- إنجيل برنابا. إنجيل إسلامى إسبانى – برنابا بونس.

- Bernabé Pons, L.F. El texto morisco del Evangelic de San Bernabé. Granada, 1998 Cardaillac, C. (ed).

- النص الموريسكى لأنجيل برنابا

- Les morisques et l'Inquisition – Paris 1990.

- الموريسكيون ومحكمة التفتيش.

- Espalza, Mikel de: Jesús entre judios y cristianos, y musulmanes hispanos (siglos VI-XVII) Granada Universidad – 1999.

- المسيح بين اليهود والمسيحيين والمسلمين الإسبان – إصدار جامعة غرناطة ١٩٩٩.

- Echervarría, Ana. The Fortress of Faih. The attcude towards Muslims in fifteenth – century spain.

- حصن الإيمان . الموقف من المسلمين فى القـرن الخـامس عشر – إسبانيا

- Catalina de Lancaster – Madrid 2002.

- كاترين لانكستر – مدريد ٢٠٠٢.

- Galmés de Fuentes, Alvaro . Los moriscos (Desde su orrilla) Madrid 1993.

- الموريسكيون (من وجهة نظرهم)

- Fonjul, S., Al Ándalus contra España. La forja del mito. Madrid 2002.

- الأندلس ضد إسبانيا . خرافة ملفقة . مدريد ٢٠٠٢.

- Marqués Villanueva, Francisco . El problema morisco (desde otras laderas) – Madrid 1991.

- القضية الموريسكية (من وجهة نظـر أخـرى) – مدريـد ١٩٩١.

- Perceval, José María. Todos son unos- Arquetipos, xonofabia y racismo.La imagen del morisco en la Monarquía española durante los siglos XVI y XVII. Almería, 1997.

- نماذج أصـــلية، كراهيــة الأجانـــب، وعنـــصرية صـــورة الموريسكى فى المملكة الإسبانية خلال القرنين ١٦و ١٧.

- Zayas, Rodrigo de , Le moriscques, et le racism d'Etat Roris, 1992.

- الموريسكيون وعنصرية الدولة.

٦- الموريسكيون بعد الطرد.

- Bernabé Pons, L. El cántico spiritual del morisco hispano tunecino taylibi, Zaragoza, 1988.

- الإنشاد الروحى للموريسكى التونسى الطيبيلى.

- Espalza M. de y Pelit, R., Recueil d'etudes sur les moriscques anadalous en Tunisie, Madrid 1973.

- سلسلة دراسات عن الموريسكيين الأندلسيين فى تونس .

- كتاب ناصر الدين على القوم الكافرين لأحمـــد بـــن قاســـم الحجرى – دراسة نقدية مترجمة إلى الإنجليزية.

- Latham, D. From Muslim spain la Barbary- Londres, 1986.

من إسبانيا المسلمة إلى البربر.

- الأندلسيون وهجرتهم إلى المغرب خلال القــرنين ١٦و ١٧ محمد رزوق – الدار البيضاء (١٩٩٩).

قائمة المراجع

- Ashtur, E. (1979) The Jews of Muslem Spain, dos vol. The Jewish Publication Society of América, Florida.

يهود إسبانيا المسلمة – جزآن.

- Baer Y. (1981) Historia de Los judíos en la España cristiana. Altalena- Madrid.

تاريخ اليهود فى إسبانيا المسيحية – مترجم عن العبرية.

- Barceló, C. (1984) Minorias islámicas en el Pais Valenciano- Universidad, Valencia.

الأقليات الإسلامية فى مملكة فالنسيا.

- Barrios Aguileral M. (2002) Granada Morisca, la convivencia negada. Editorial comares- Granada.

غرناطة الموريسكية والتعايش المرفوض.

- Benités Sanchez. Blanco, R. (2001) Heroicas decisiones. La Monarquía Católica y los moriscos Valencianos Inistitució Alfons el Magnanim- Valencia.

- قرارات بطولية. المملكة الكاثوليكية والموريسكيون الفالنسيون.

- Bernabé Pons. L. (1995), EL evangelio de San Bernabé, Un evangelio islámico español, Universidad Alicante .

إنجيل برنابا، إنجيل إسلامى إسبانى.

- Bernabé Pons. L. (1998) El Cántico espiritual del morisco hispanotunecino, Tailibi, Institución Fernando el Católico-Zaragoza.

النشيد الروحى، للموريسكى الإسبانى التونسى – الطيبيلى.

- Boswell (1977), The Royal treasure : Muslim communities Under the crown of Aragon in the Fourteenth century, Yale University Press New Haven y Londres.

- Braga, Isabel Drumond (1999), Moriscos e cristaos no Portugal quinhentista. Duas culturas e Duas concepciones religiosas en Choque, Hugin, Lisboa.

الموريسكيون والمسيحيون فى البرتغال خلال القرن الخامس عشر وصدام بين ثقافتين ومفهومين دينيين.

- Burns, I. (1967). The Gusader kingdom of Valencia. Reconstrucción of a Thirteenth century Frontier, University Press. Cambridge. Valencia, Del Cenio al Segura. 1982.

مملكة فالنسيا المسيحية.

- Burns, (1975) Medieval Colonialism : Pastcrusade Explotatión of Islamic Valencia, University Press. Princeton.

استعمار العصور الوسطى.

- Burns, (1984) Muslim, Christians and Jews is the Crusader kingdom of Valencia, University Press – Cambridge.

المسلمون، والمسيحيون، واليهود فى مملكة فالنسيا المسيحية.

- Cardaillac L. (1971) Morisques et Cheritiens. Un affrontement polémique. Klinsieck, Paris.

موريسكيون، ومسيحيون، مواجهة جدلية – ترجم إلى الإسبانية(*).

- Cardaillac, L. (dir) (1990), Les Moriques et L'Inquisitión. Publisud.

(*) توجد ترجمة جزئية لهذا الكتاب إلى اللغة العربية. انظر : لوى كاردياك "الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون : المجابهة الجدلية" تعريب د. عبد الجليل التميمي، زغوان، تونس، ١٩٨٩ . (المراجع)

الموريسكيون ، ومحكمة التفتيش.

Domninguez Ortiz, A., y Vincent, B. (1981) Historia de los moriscos. Vida y tragedia de una minoría. Revista de Occidente. Madrid. Varias ediciones, la última, Madrid, Alianza Ed. 1977.

تاريخ الموريسكيين، حياة ومأساة أقلية.

- Echevarría, Ana (1999), The fortress of faith . The attidue towards muslims in fifteenth century spain – Leiden – E.J. Brill.

حصن الإيمان.

- Espalza M. De y Pelit R. (1973) Recueil d'etudes sur los morisques andalous en Tunisie, Instituto Hispano arabe de cultura – Madrid.

دراسة حول الموريسكيين الأندلسيين فى تونس.

- Espalza M.D. (1992) Los moriscos antes y después de la expulsión, Maphre, Madrid.

الموريسكيون فى إسبانيا وفى المنفى.

- Fernández y Gonzales M. (1995) Estado social y político de los mudéjares de castilla, Hiperion Madrid.

أوضاع المدجنين الاجتماعية والسياسية فى قشتالة.

- Ferrer y Mallol, M. T. (1990) Els sarrains de la corona catalana- Aragonesa en el segle XIV CSIC- Barcelona .

المسلمون التابعون للتاج القطالونى – الأراغونى فـــى القـــرن الرابع عشر.

- Ferrer Mallol, M.T. (1988) Les aljames del Reino de la governació d' oriole XIV, CSIC- Barcelona.

الجماعات الإسلامية فى مملكة أوريولا فى القرن الرابع عشر.

- Galan Sánchez, A. (1991), Los mudéjares del Reino de Granada, Servicio de Publicaciones de la Universidad, Granada.

المدجنون فى مملكة غرناطة.

- Galmés de Feuntes, Alvaro (1993) Los moriscos (desde su misma orilla) Institute egipcio de estudios islámicos – Madrid

الموريسكيون من وجهة نظرهم.

- García Arenal, M. Y Leray B. (1981), Moros y Judíos en Navarra en la Baja Edad Media – Hiparión, Madrid.

المسلمون واليهود فى مملكة نابارًا فى العصور الوسطى.

- García Arenal M. y Wiegers, GA (1991) Entre el Islam y occidente : vida de Samuel Palache, Judío de Fez Siglo XXI?

بين الإسلام والغرب : حياة صمويل باياتشى(*) يهــودى مــن ناس القرن ٢١، ص ١٥٥(**).

- Clic Th. (1979), Islamic and cristian spain en the early Midlle ages, University Press, Princeton. Traducido al español.

إسبانيا الإسلامية والمسيحية في العصور الوسطى المتقدمــة. ترجم إلى الإسبانية

- Guichard, P. (1999-91) Les Muslimans de Jalence et le Reconquete (XII-XIII Siecles) Institut Francais de Damas, Damasco, 2 vol .

مسلمو فالنسيا وحرب الاسترداد.

- Harvey, L.P. (1990) Islamic Spain- 1250-1500 The University of Chicago Press, Chicago, Londres.

إسبانيا الإسلامية ١٢٥٠-١٥٠٠.

(*) هذا الكتاب ترجم إلى الإنجليزية تحت عنوان A Man of three worlds.

(**) ترجم هذا الكتاب إلى العربية . انظر "بين الإسلام والغرب" تأليف غارثيا أرينال وجيــرارد ويغرس ترجمة ممدوح البستاوى، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥. (المراجع)

- Hinojosa Montalvo J. (2002) Los mudéjare, La voz del Islam en le España cristiana (Centro de estudios Mudéjares, Teruel, 2 vol. El segundo dedicado a documentos.

المدجنون، صوت الإسلام فى إسبانيا المسيحية، جزآن. الجزء الثانى خاص بالوثائق.

- Ladero Quesada, M.A. (1969) Los Mudéjares de Castilla en tiempos de Isabel la Católica, Instituto Isabel la Católica, Valladolid, que puede leerse conjuntamente con el libro del mismo autor (1978), Granada, Historia de un País islámico, Madrid, de la que existen reediciones posteriores. O también de Ladera (1988) Granada después de la conquista repobladores y mudéjares, Universidad Granada.

مدجنو قشتالة فى عصر إيسابيل الكاثوليكية، ويمكن قراءة هذا الكتاب مع كتاب للمؤلف نفسه بعنوان :غرناطة، تاريخ دولة إسلامية. أو كتاب: "غرناطة بعد الغزو. المستوطنون الجدد والمدجنون". للكاتب نفسه أيضًا.

- Latham, D. (1986) From Muslim Spain to Barbary . Variorum- Reprintst.

- من إسبانيا المسلمة إلى البربرية.

- Manzano Moreno, E. (1991) La frontera de al-Ándalus en época de los Omeyas, CSIC, Madrid.

حدود الأندلس فى عصر الأمويين.

- Marqués Villanueva F. (1991) El problema morisco (desde otras Laderas) Ediciones Libertarias, Madrid.

المشكلة الموريسكية (من وجهة نظر أخرى).

- Meyerson, M. (1991) The Muslims of Valencia en the age of Fernando and Isabel : Between Coexistence and Crusade, Barkeley, trad al valenciano, Institute Alfonso el Magnanim. Valencia, 1999.

مسلمو فالنسيا فى عصر فرناندو وإيسابيل، بين التعايش والحرب الصليبية، ترجم إلى اللغة الفالنسية.

- Mollet- Gérard, D. (1984) Cretinas mozarabes el cultura islamique dan's l'Espagne de VII-IX Siècles. Etudes Augurtiniennes, Paris.

المستعربون المسيحيون والثقافة الإسلامية فى إسبانيا من القرن السابع إلى القرن التاسع.

- Molénal, J.P. (1977) Campagnes et monts de Tolede du XII au XVeme siecle, Casa de Velásquez Madrid.

ريف طليطلة وجبالها من القرن الثاني عــشر إلـــى القــرن الخامس عشر.

- Nirenberg, D. (1996) Communities of Violence Persecution of Minorities in the Middle Ages, University Press, Princeton; Trad. al castellane, Peninsula, Barcelona, 2001, al francés. Puf. Paris 2001.

مجتمعات العنف. اضطهاد الأقليات في العصور الوســطى. ترجم إلى الإسبانية، والفرنسية

- Viguera, M.J. (1981) Aragón Musulmán, Zaragoza, reed. Mira D.L., Zaragoza.

أراغون المسلمة.

- W.AA (2000) El Marruecos Andalusi, Museos Sin Frontera. Electa. Madrid . Trad Frances EDDIF, Casablanca 2000.

المغرب الأندلسي، متاحف بلا حدود . ترجم إلى الفرنسية.

- W.AA. (2000), El arte Mudéjar. La estética musulmana en el arte cristiano. Museos Sin Fronteras. Electa- Madrid- Trad, Frances . EDIFF

الدار البيضاء الجمال الإسلامى فى فن المدجنين . ترجم إلى الفرنسية.

- Wiegers, G.A. (1994) Islamic Litrature in Spanish and aljamiado : Yça of segoria (d.1450) he's antecedentes and cuccessorsl.

الأدب الإسلامى بالإسبانية و الألخميادية.

المؤلفة فى سطور

مرثيديس غارثيا أرينال

- أستاذة بالمجلس الأعلى للبحث العلمى فى إسبانيا ، ورئيسة قسم اللغة العربية به لعدة دورات

- من أبرز المتخصصين فى الدراسات الموريسكية

- لها العديد من الكتب والمقالات المنشورة فى إسبانيا وغيرها حول العلاقة بين المغرب وإسبانيا

- أشرفت على العديد من الرسائل الجامعية المقدمة إلى جامعة مدريد المركزية .

المترجم فى سطور

محمود فكرى عبد السميع

- من مواليد منية النصر – دقهلية.

- ليسانس لغة إسبانية – كليه الألسن ١٩٦١ .

- مدير إدارة البرنامج الإسبانى بالبرامج الموجهة بإذاعة جمهورية مصر العربية (سابقًا). عمل مترجمًا بالمكتب التجارى في السفارة المصرية بمدريد، ومركز الترجمة والمعلومات بالمملكة العربية السعودية .

- ترجم إلى العربية عددًا من القصص والمسرحيات من الأدب الإسبانى وآداب أمريكا اللاتينية ، نشرت بالصحف والدوريات المصريه والعربية .

المراجع فى سطور

جمال أحمد عبد الرحمن

- من مواليد ١٩٥٦ بقرية بنى مجد (أسيوط).

- حاصل على درجة الإجازة العليا (الليسانس) فى اللغة الإسبانية بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف (١٩٧٩) ، كلية اللغات والترجمة ، جامعة الأزهر.

- الدراسات التمهيدية للدكتوراه فى جامعتى سلمنكا ومدريد.

- حاصل على درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف فى جامعة مدريد المركزية (١٩٨٩).

- فى عام ٢٠٠١ رقى إلى درجة أستاذ بقسم اللغة الإسبانية بكلية اللغات والترجمة ، جامعة الأزهر.

- له العديد من الكتب المترجمة والمقالات المنشورة فى مصر والخارج حول موضوعات مختلفة من الأدب الإسبانى والعلاقة بين الإسلام والثقافة الإسبانية.

التصحيح اللغوى : محمد إسماعيل

الإشراف الفنى : حسن كامل